

التَّعْلِيقُ الشَّامِل

عَلَى رِسَالَةِ الإِمَامِ الشِّنْقِيطِي

الإِسلاَمُ دِينٌ كَامِل



الطَّبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

التَّعْلِيقُ الشَّامِل

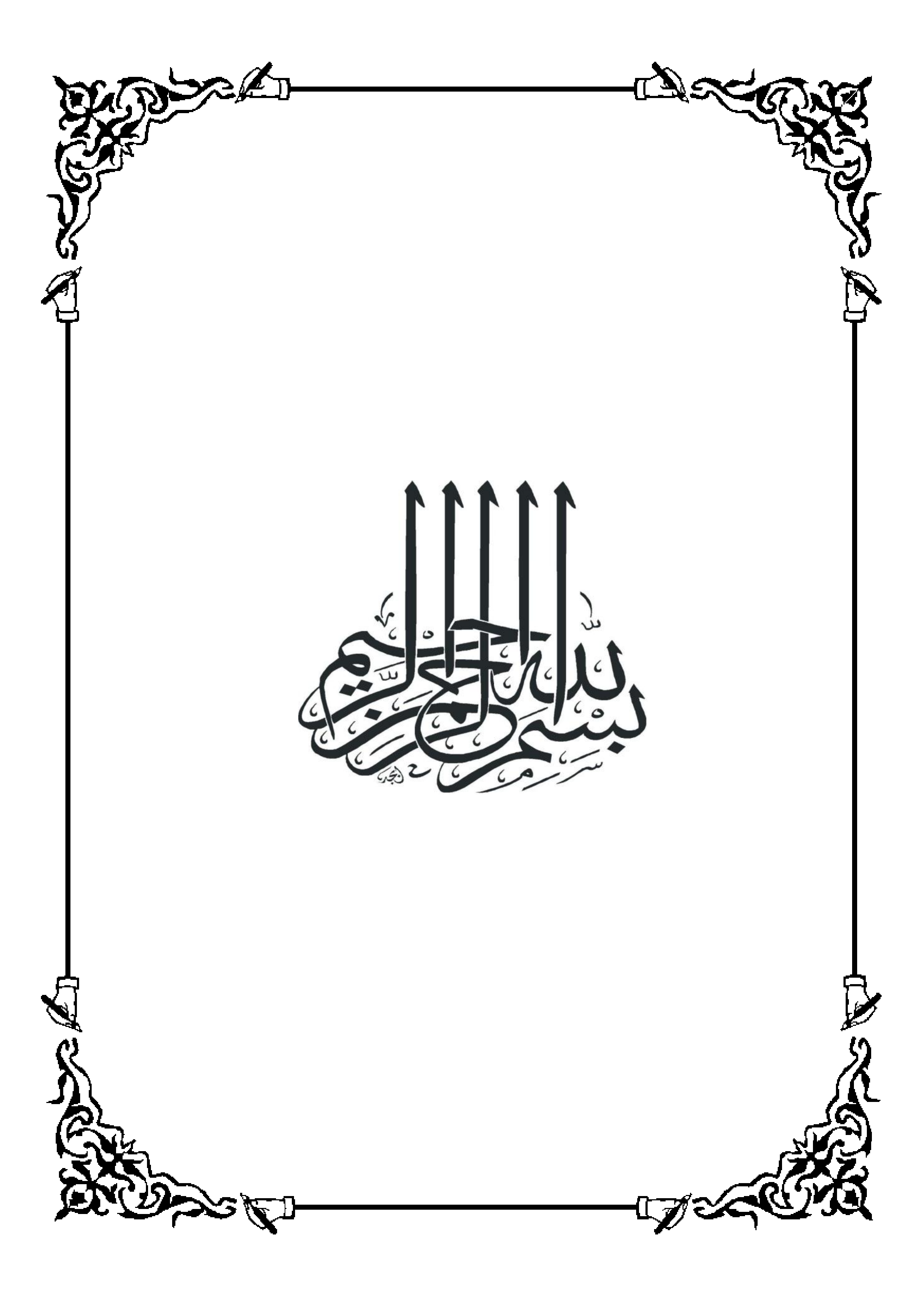
عَلَى رِسَالَةِ الإِمَامِ الشِّنْقِيطِي

الإِسلَامُ دِينٌ كَامِل

كَتَبَهُ

أَبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ

مُعَاذُ بنُ أَحْمَدَ بنِ فُؤَادِ بنِ حَسَنِ الزَّعِيمِ



(مُقَدِّمَةُ التَّعْلِيقِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مزيداً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وصفيّه من خلقِهِ وخلِيلُهُ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنَّ أعظم ما امتنَّ الله به على هذه الأمة هي نعمةُ الإسلام التي من تمسَّكَ بها ربح خيري الدنيا والآخرة، ومن ضلَّ عنها خسر الدُّنيا والآخرة.

ولقد جعل الله هذا الدِّين أحسنَ الأديان، وجعل فيه شرائع عظيمةً، وميَّزه الله على غيره من الأديان بأمورٍ ثلاثةٍ، وهي:

الأمر الأول: الكمال.

الأمر الثاني: الشمول.

الأمر الثالث: البقاء.

وقد ألَّف كثيرٌ من العلماء والدُّعاة إلى الله وطلبة العلم في فضله، ومميزاته، وما يتعلَّق به من العقائد والعبادات والأحكام والمعاملات، والآداب، وغيرها.

ومن هؤلاء العلماءِ الإمامُ المُفسِّرُ الكبيرُ محمدُ الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ﷺ، فقد ألَّف رسالةً في بيان كمال الإسلام وشموله، وهي رسالةٌ –

على اختصارها- منهجيَّةٌ عَقَديَّةٌ فقهيَّةٌ قويَّةٌ، علميَّةٌ نافعةٌ في بابها جدّاً، عنوانُها (الإسلامُ دينٌ كاملٌ).

قرأتُها، واستفدتُّ منها، ومن خلال قراءتي لها كنتُ أُعلِّق على بعض مواضيعها حتَّى صارت جديرة بالاعتناء، فرأيتُ أن أُفردَها بتعليقٍ وتحقيقٍ، عسى الله أن ينفع بها، فخرجت في هذا الجزء المتواضع، عِلماً أنَّها من ضمن الرسائل التي لم يكنْ قصدي فيها تعمُّد التحقيق والتعليق، وإنَّما كما يُقال (على الطَّريق)، لكنني أرجوا أن لا أكون بخيلاً على إخواني المسلمين بنشر ما يسَّره الله من هذه التَّعليقات المختصرة، لعلَّ الله أن ينفع بها، فإنَّ أعظمَ ما نُقدِّمه من الخير للمسلمين هو عِلمُ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فأرجوا أن يكون هذا العمل وسائر الأعمال الخيرية المتعدية للغير نافعاً مثمراً، واللهَ أسألُ أن يرزقنا الصِّدقَ، والإخلاصَ، والبرَّ، والتَّقوى، ومِنَ العملِ ما يرضى، وأن يجعل ذلك كلَّه مستمرَّاً، مثمراً، إنَّه هو أعلمُ وأحكمُ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*** عَمَلِي فِي الرِّسَالَةِ:**

عملي في هذه الرسالة: مقابلتها على طبعة (الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الإدارة العامة لمراجعة المطبوعات الدينية –الرياض- المملكة العربية

السعودية) [١]. وتحقيق أحاديثها على وِفق قواعدِ المصطلح قدْرَ الإمكان، والتَّعليق على المسائل بما يسَّر الله، وهو تعليقٌ مختصرٌ، مبسَّطٌ، سهلٌ، وجعلتُ مُقدِّمَةً مختصرةً تمهيداً للموضوع. وجعلتُ لكلِّ مسألةٍ عنواناً بارزاً موافقاً لعنوان المسألةِ التي يذكرها المؤلف، وسمَّيتُها: (**التَّعْلِيقُ الشَّامِل عَلَى رِسَالَةِ الإِمَامِ الشّنقِيطِي "الإِسلاَمُ دِينٌ كَامِل"**)، والله الموفِّق.

كتبه

أبو عبد الرحمن معاذ بن أحمد بن فؤاد الزَّعيم

وفَّقه الله وسدَّده

* * * *

(١) وأصلها محاضرةٌ ألقاها في المسجد النبوي بطلبٍ من مَلِكِ المغرب، كما ذكر ذلك في مقدِّمته.

(الأَصْنَافُ الطَّاعِنَةُ فِي كَمَالِ الدِّينِ)

هذه الرسالة مضمونها الكلام على كمال الدِّين، وبيان المسائل العِظام التي عليها مدار الدِّين والدنيا، بألفاظٍ موجزةْ مُختصرةٍ.

وهي تردُّ على ثلاثة أصنافٍ:

الصنف الأول: صنفُ العلمانيين، الذين يدَّعون أنَّ الدِّين لم يوفِّ بما تهواه أنفسهم من الشبهات الشيطانية، والشهوات النفسية المحرَّمة، وطعنوا في مصالِحِهِ، وخيراته، وادَّعوا قوانينَ ومصطلحات ومناهج اخترعوها مِنْ عِند أنفسهم زاعمين أنَّها أنفع من الدِّين الإسلامي، وأنسب لواقع العباد والبلاد. وهي في الحقيقةِ أضرُّ على الدِّين الإسلامي، وأفسد لواقع العباد والبلاد، إذ هي نبذ ما جاء في القرآن والسنة، من الخير العظيم للعباد والبلاد، كيف لا؛ وهي قوانين ومصطلحات وأنظمة أصلُ بنائها تقديمُ العقول السقيمة، واتِّباع الأفكار الماسونية، واليهودية، والنصرانية، وتنفيذ كلّ المتطلبات الغربية، واعتبار الآراء الباطلة، والتي مبدؤها وأصلها ومضمونها: (فصلُ الدِّين عن الدَّولة)، و(لا سياسة في الشريعة الإسلامية).

الصنف الثَّاني: المنافقون، وهمُ الَّذين يُنكرون سنَّةَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وهؤلاء أصناف شتَّى، وطرائق قِدَدَاً:

فمنهم من يُنكر السنَّةَ أصلاً؛ وهؤلاء هم الذين يُقال لهم (القرآنيُّون)[١].

ومنهم من يُنكر ما كان عن طريق الآحاد، وما فيه من الأمور الغيبية التي تستحيلُها عقولهم المريضة، وهؤلاء هم المعتزلة ومن ضاهاهم، وفي عصرنا يُقال لهم العقلانيُّون.

ومنهم من يُنكر ما جاء عن طريق غير آل البيت، فكلُّها عندهم ليست صحيحة ولو كانت في قمَّةِ الصِّحة، ويقبلون كلَّ ما جاء عن طريق آل البيت، أو ما فيه مدحٌ لهم، ولو كان في قمَّة الضَّعف والكذب، وهم أكذب خلْقِ الله على رسولِ الله ﷺ وآل بيتِهِ، وهم بالجملة يُنكرون عمومَ السنَّة كما هو واقع الرَّافضة، والاثني عشرية، والإمامية من الشيعة.

الصنف الثالث: المبتدعة، وهم الَّذين يبتدعون في دينِ الله ما ليس منه، ويتعبَّدون الله به، وهم بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال يدَّعون ببدعهم هذه أنَّ الدِّين لم يُكمل، وأنَّه ناقصٌ، فكانت بدعهم هذه مكمِّلاتٌ للدِّين؛ وعليه:

(١) هكذا سُمُّوا؛ وإلا فلا يصلح أن يُطلق عليهم هذا الاسم؛ لأنَّهم لو كانوا قرآنيين فعلاً لآمنوا بالسنة، وعملوا بها؛ لأنَّ القرآن يحثُّ على السنَّة، فمن لم يقبل السنَّة النبوية فإنَّه ليس بقرآنيٍّ ولا سُنِّيٍّ، بل هو زنديقٌ شيطانيٌّ، نسأل الله العافية.

فقد كذّبوا الله، وطعنوا في رسولِه ﷺ، وأصحابه، وأئمة الدِّين، نسأل الله العافية.

* * * *

(البِدْعُ تَطْعَنُ فِي كَمَالِ الدِّينِ)

لقد حثَّنا الله سبحانه وتعالى على اتِّباع كتابه، وسنَّة رسوله ﷺ، وبيَّن أنَّ دينه مكملٌ، وأنَّه بيَّن فيه ما يحتاجه العباد من أمور دينهم ودنياهم، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٥].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**» رواه البخاري ومسلم.

وفي روايةٍ لمسلمٍ «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)].

وَعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**». وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**». وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهَّ، وَخَيْرَ الْهُدَي هُدَي مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**». ثُمَّ يَقُولُ: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**». رواه مسلم[(٢)].

وَعَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الْفَجْرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا أَوْ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا. قَالَ: «**أُوصِيكُمْ**

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٦٩٧) ومسلم برقم (١٧١٨)، ورواية مسلم أخرجها برقم (١٧١٨) الرقم الخاص (٤٤٩٣)..

(٢) رواه مسلم برقم (٨٦٧).

بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». أخرجه أحمد، أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وهو حديثٌ صحيحٌ [(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهَّ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**». رواه البخاري، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما [(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ**». رواه مسلم، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ**

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧١٤٤) وأبو داود برقم (٤٦٠٧) والترمذي برقم (٢٦٧٦) وابن ماجه برقم (٤٣و٤٤)..

(٢) رواه البخاري برقم (٦٨٨٢).

(٣) رواه مسلم برقم (١٠١٧).

مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». رواه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه [(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا**». -وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ- «**مِنْ دَمِهَا**». لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا. رواه البخاري ومسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [(٢)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**». رواه البخاري ومسلم [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ**

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٧٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٣٢١) ومسلم برقم (١٦٧٧).

(٣) رواه البخاري برقم (٥٠٦٣) ومسلم برقم (١٤٠١).

مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رواه مسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [(١)].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ « **نَعَمْ** » فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**». قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ «**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**». فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ «**نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**». فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**». رواه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم [(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ**

(١) رواه مسلم برقم (٥٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٦٠٦) ومسلم برقم (١٨٤٧).

وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**». رواه البخاري ومسلم [١].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا**». رواه البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما [٢].

* * * *

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧) ومسلم برقم (٢٦٦٥).

(٢) رواه البخاري برقم (١٠٠) ومسلم برقم (٢٦٧٣).

(مِنْ كَلامِ العُلَمَاءِ فِي أَنَّ البِدَعَ تَطْعَنُ فِي كَمَالِ الدِّينِ)

قال الإمام الشاطبي ﷺ: الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان ...-ثم ذكر آية المائدة وحديث العرباض- قال: وثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله : إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون : سمعت مالكاً يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول : ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً ا.هـ من "الاعتصام"(ص:٣٦-٣٧).

وقال الإمام ابن القيم ﷺ: البدعة أحبّ إليه -يعني الشيطان- لمناقضتها الدِّين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله،

وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة. فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدِّين كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر والعميان، ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠] ا.هـ من "مدارج السالكين"(المجلد الأول).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: فإذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟!

إن كان من الدِّين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردٌ للقرآن!.

وإن لم يكن من الدِّين فأي فائدة من الاشتغال بما ليس من الدِّين؟! وهذه حجة قاهرةٌ، ودليلٌ عظيمٌ، لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به آنافهم، وتدحض به حججهم، فقد أخبرنا الله في محكم كتابه أنه أكمل دينه ولم يمت

رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل، فمن جاءنا بالشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له: الله أصدق منك، فاذهب فلا حاجة لنا في رأيك، وليت المقلدة فهموا هذه الآية حق الفهم، حتى يستريحوا ويتركوا، ومع هذا فقد أخبرنا في كتابه أنه أحاط بكل شيء علماً ا.هـ من "القول المفيد في حكم التقليد"(ص:٣٨).

وقال العلامة المعصومي الخكنجي رحمه الله: فطُرُقُ الدِّينِ والعبادات الصحيحة إنَّما هي ما بيَّنه الذي خَلَقَ الخَلْقَ على لسان رسوله محمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ زاد على هذا أو نقص؛ فقد خالف الحكيمَ الخلَّاقَ العليمَ، بتركيبه الأدوية من عند نفسه، فربَّما صار دواؤه داءً، وعبادته معصيةً، وهو لا يشعر؛ لأنَّ الدينَ قد كمُلَ تمام الكمال، فَمَنْ زاد شيئاً فيه؛ فقد ظنَّ الدِّينَ ناقصاً، وهو يكمِّله باستحسان عقله الفاسد، وخياله الكاسد ا.هـ من "مفتاح الجنة لا إله إلا الله"(ص:٥٨).

وقال الإمام عبد العزيز بن بازٍ رحمه الله: وقد ثبت عن أصحاب رسول الله ﷺ وعن السلف الصالح بعدهم : التحذير من البدع ، والترهيب منها ؛ وما ذاك إلا لأنها زيادة في الدين ، وشرع لم يأذن به الله ، وتشبه بأعداء الله من اليهود والنصارى في زيادتهم في دينهم وابتداعهم فيه ما لم يأذن به الله ، ولأن لازمها التنقص للدِّين الإسلامي واتهامه بعدم الكمال ، ومعلوم ما في هذا من الفساد

العظيم والمنكر الشنيع والمصادمة لقول الله عز وجل : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، والمخالفة الصريحة لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام المحذرة من البدع والمنفرة منها ا.هـ من "التحذير من البدع"(ص:٨).

وقال الإمام محمد بن عثيمين رحمه الله: إنك لترى هذا القرآن العظيم قد بين الله تعالى فيه أصول الدين وفروع الدين، فبين التوحيد بجميع أنواعه، وبين حتى آداب المجالس والاستئذان قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٧-٢٨].

حتى آداب اللباس، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

[الأحزاب:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي يتبين بها أن هذا الدِّين شاملٌ كاملٌ لا يحتاج إلى زيادة كما أنه لا يجوز فيه النقص، ولهذا قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، فما من شيء يحتاج الناس إليه في معادهم ومعاشهم إلا بينه الله تعالى في كتابه إما نصاً، أو إيماءً وإما منطوقاً، وإما مفهوماً.

أيها الأخوة: إن بعض الناس يفسر قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨]، يفسر قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ على أن الكتاب القرآن.

والصواب: أن المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، وأما القرآن فإن الله تعالى وصفه بأبلغ من النفي وهو قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] . ولعلَّ قائلاً يقول: أين نجد أعداد الصلوات الخمس في القرآن؟ وعدد كل صلاة في القرآن؟ وكيف يستقيم أننا لا نجد في القرآن بيان أعداد ركعات كل صلاة والله يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

﴿شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] ؟ . والجواب على ذلك أن الله تعالى بين لنا في كتابه أنه من الواجب علينا أن نأخذ بما قاله الرسول ﷺ وبما دلّنا عليه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، فما بينته السنة فإن القرآن قد دل عليه؛ لأن السنة أحد قسمي الوحي الذي أنزله الله على رسوله ﷺ وعلَّمه إياه كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، وعلى هذا فما جاء في السنة فقد جاء في كتاب الله عز وجل.

أيها الأخوة: إذا تقرر ذلك عندكم فهل النبي ﷺ توفي وقد بقي شيء من الدين المقرب إلى الله تعالى لم يبينه؟

أبداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن كلَّ الدِّين إما بقوله وإما بفعله وإما بإقراره ابتداء أو جواباً عن سؤال، وأحياناً يبعث الله أعرابياً من أقصى البادية ليأتي إلى الرسول ﷺ يسأله عن شيء من أمور الدين لا يسأله عنه الصحابة الملازمون لرسول الله ﷺ، ولهذا كانوا يفرحون أن يأتي أعرابي يسأل النبي ﷺ عن بعض المسائل. ويدلك على أن النبي ﷺ ما ترك شيئاً مما يحتاجه الناس في عبادتهم ومعاملتهم وعيشتهم إلا بينه، يدلك على ذلك قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] .

إذا تقرَّر ذلك عندك أيها المسلم فاعلم أن كل من ابتدع شريعةً في دين الله ولو بقصد حسن فإن بدعته هذه مع كونها ضلالة تعتبر طعناً في دين الله عز وجل، تعتبر تكذيباً لله تعالى في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. لأن هذا المبتدع الذي ابتدع شريعةً في دين الله تعالى وليست في دين الله تعالى كأنه يقول بلسان الحال: إن الدِّين لم يكمل لأنه قد بقي عليه هذه الشريعة التي ابتدعها يتقرب بها إلى الله عز وجل ا.هـ من "الإبداع في بيان كمال الشرع وخطر الابتداع" نقلاً من "مجموع فتاويه ورسائله"(٥/ ٢٤٣-٢٤٦).

وقال رحمه الله: فلنتبع شرعه ولا نتعداه ؛ لأن أي بدعة تحدث يتقرب بها الإنسان إلى رب العالمين وليست في دين الله فإنها تتضمن أيها الإخوة الاعتراض على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن كلَّ إنسان يُحدِثُ في دين الله بدعة يتعبَّد بها ويتقرب إلى الله بها ، فإن بدعته هذه تستلزم الطعن أو القدح في الله -عز وجل- وفي الرسول وفي الصحابة.

أما في الله: فلأنه إذا ابتدع في دين الله ما ليس منه فقد كذب الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فإذا أحدثنا في دين الله شيئاً بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فمقتضى ذلك

التكذيب للآية ، والقدح في الله عز وجل ؛ فإن قيل : كيف يتضمن القدح في الله -عز وجل- من حيث لا يشعر الإنسان؟ أي إنسان يبتدع في دين الله ما ليس منه من أذكار أو صلوات أو غيرها مما يتقرب به إلى الله .

نقول: إذا كنت تتقرب بذلك إلى الله، فإن ذلك دين تدين الله به ، وترجو به ثوابه والنجاة من عقابه ، فأين أنت من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، كيف يكون كمالاً وأنت تأتي بعده بجديد ، هل يكون كمالاً يحتاج إلى تكميل فيما بعد؟

الجواب: لا يكون ذلك، كما أن فيه انتقاصاً للرسول ﷺ ، حيث أخبر بكمال الدين ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وكذلك انتقاص لله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل بيّن كمال الدين كما في الآية الكريمة ، وكذلك فيه انتقاص للصحابة -رضوان الله عليهم- من حيث أنهم كتموا شيئاً من الشريعة الإسلامية؟

وكذلك اتهامٌ لهم -رضوان الله عليهم- بالجهل في دين الله عز وجل.

ومن هذا الكلام يتبين أن من ابتدع في دين الله عز وجل ، فإن بدعته هذه تتضمن القدح في:

١ - الله عز وجل.

٢ - ورسوله ﷺ.

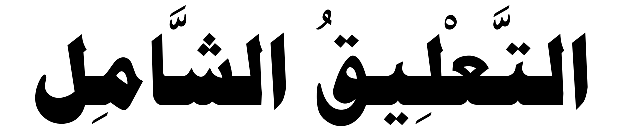
٣ – وفي الصحابة رضوان الله عليهم ا.هـ من "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ العثيمين"(٧/ ٣٥٧-٣٥٨).

وقال الإمام مقبل الوادعي رحمه الله: إن خطر المبتدعة على الفرد والمجتمع– بل وعلى الأمة جَمعاء– جسيمٌ، ويكمن خطرهم في أمرين:

الأمر الأول: أن المبتدع يقول بلسان الحال وإن لم يكن بلسان المقال أن الله لم يكمل لنا الدين، وهذا تكذيب لقوله تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾.

الأمر الثاني: أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يبلغ دين ربه أتم البلاغ، وهذا تكذيب لما ثبت عند ابن أبي عاصم، من حديث العرباض بن سارية: **(قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)** ا.هـ من "البركان لنسف جامعة الإيمان".

* * * *



عَلَى رِسَالَةِ الإِمَامِ الشِّنْقِيطِي

الإِسلَامُ دِينٌ كَامِل

كَتَبَهُ

أَبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ

مُعَاذُ بنُ أَحْمَدَ بنِ فُؤَادِ بنِ حَسَنِ الزَّعِيم

(مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدِّين.

أما بعد:

فهذه محاضرةٌ ألقيتها في المسجد النَّبوي بطلبٍ من مَلِكِ المغرب، فطلبَ منِّي بعضُ إخواني تقييدها لنشرها، فلبَّيتُ طلَبَه؛ راجياً من الله أن ينفع بها [1].

---

(١) هنا فائدتان:

الأولى: أنَّ أصلَ هذه الرسالة كانت محاضرة أُلقيت في المسجد النبوي الشريف.

الثانية: تلبية طلب الراغبين في تفريغ هذه المحاضرة وجعلها من المسموع إلى المقروء.

أمَّا الفائدة الأولى:

ففيه أنَّ الشخص قد تكون بعض مؤلَّفاته عبر التَّفريغ، فتكون بدايةً كلمات تُلقى على مسامع النَّاس، ثمَّ بعد ذلك تُفرَّغ هذه الكلمات إلى أوراق، فتُنقَّح، وتُعدَّل، وتُصلح، وتُخرج للناس.

ومن هُنا؛ فليُعلم أنَّ المسموع غير المقروء، فالمقروء المكتوب يكون الإتقان والجودة فيه أكثر من المسموع، حتَّى وإِن نُقِّح وعُدِّل المسموع إلا أنَّه لا يكون كالمكتوب بدايةً. وقد صار على هذا الطريق جماعة من العلماء في هذا العصر، ومن أبرزهم الإمام الفقيه الزَّاهد محمد بن صالح العثيمين رحمه الله؛ فإنَّ كثيراً مِن مؤلفاته مؤلفاته إن لم يكن أكثرها حسب ما رأيتُ من قبيل تفريغ المسموع، ومع هذا فيها =

= من البلاغة والإتقان والجودة ما قد تظن أنَّه كتبه بدايةً، وهذا بعد التنقيح والتعديل. ومع هذا يقول رحمه الله:

هناك فرقٌ بين الإملاء وبين كتابة الدَّرس الذي يلقيه الشيخ بدون أن يشعر أنَّه يُملي على الطلبة -يعني ما يُسمَّى بالتقرير- ، فرقٌ بين الكِتابة بالتقرير والكتابة بالإملاء، لأنَّ الإملاء سوف يكون محرَّراً ومنقحاً، والشيخ لا يملي كلمةً إلا ويعرف منتهاها، لكن التَّقرير يُلقي الكلام هكذا مرسلاً، ربما تدخل كلمات في بعضٍ، وربما سقطت كلمة سهواً وغير ذلك، فنُفرِّق بين التقرير وبين الإملاء ا.هـ. من "شرح حلية طالب العلم" (ص:٢٠٣) ط: مكتبة عباد الرحمن. بتعليق عمرو عبد المنعم.

ولهذا؛ فإنَّه ينبغي لكلِّ من فرَّغ كتاباً أن يُهذِّبه، ويُنقِّحه، ويُعدِّل ما يحتاج إلى تعديل، فلا يخرج الكتاب من حوزته إلى أيدي النَّاس إلى بعد أن يبذل جهده في ذلك، والكمال لله تعالى، ولكن سدِّدوا وقاربوا، وتحرّوا الصواب، وتجنبوا الخطأ.

قال الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"(٢/ ٢٨٢-٢٨٣): ينبغي أن يفرغ المصنف للتصنيف قلبه، ويجمع له همَّه، ويصرف إليه شغله، ويقطع به وقته... ولا يضع من يده شيئاً من تصانيفه إلا بعد تهذيبه وتحريره، وإعادة تدبّره وتكريره ا.هـ. باختصار.

وقال الإمام النووي رحمه الله في مقدمته لكتاب "المجموع" (١/ ٦١١-٦١٢): وليحذر كلَّ الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له؛ فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه، وليحذر أيضاً من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه وتكريره، وليحرص على إيضاح العبارة، وإيجازها فلا يوضح إيضاحا ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازاً يفضي إلى المَحْق والاستِغْلاق ا.هـ. =

=

وبالمناسة؛ فإنَّني أنصح أن لا يُستعجل بنقل الكلام الخطأ الذي يُسمع من الشيخ الذي عُلِمَ منه الخير وملازمة الحق ومجانبة الخطأ، حتَّى يُعرض عليه، ويُذكَّر به ليتراجع عنه، ويصوّبه. هذا شيء.

وشيء آخر هو: أنَّه ينبغي للمستمع أن يفهم الكلام الذي يلقيه عليه الشيخ فهماً صحيحاً لا فهماً خاطئاً، فإذا أشكل عليه عرَضَه على شيخه ليسأله عن مراد كلامه، ولا يستعجل الانتقاد والردّ ونشر الكلام. فإنَّا قد وجدنا بعض المبتدئين ومن هو كثير الغفلة قد يفهم عن شيخه كلاماً فهماً خاطئاً ثمَّ يبادر بنشره، وتوسعة الدائرة عليه في الردِّ والانتقاد، وسوء العتاب، بما قد يلفت أنظار الناس إلى ما يؤدي إلى التنفير عنه، وعدم الثِّقة به، كلّ ذلك بسبب الفهم الخاطئ الذي هو خلاف ما أراده الشيخ من الفهم الصحيح، وهذه آفة يقع فيها كثيرٌ من المتهوِّرين، الذين ابتلوا بالعجلة، والله أعلم بالنوايا، ولا حول ولا قوة إلا به.

وأمَّا الفائدة الثانية:

تلبية طلبات الرَّاغبين في نشر العلم والخير، نستفيد من هذا اختلاف النَّاس في أسباب التأليف.

فبعضهم يؤلِّف الكتاب بدايةٍ من نفسه، دون أن يلجئه شيءٌ.

وبعضهم يؤلِّف الكِتاب تلبيةً لطلب السائل في موضوعٍ ما.

وبعضهم يؤلِّف كتاباً مشتملاً على الجواب على مسألةٍ سئل عنها.

وبعضهم يؤلِّف كتاباً في حادثةٍ تحصل هي بحاجةٍ ماسةٍ إلى بيان وإيضاح. وغير ذلك ممَّا هو سببٌ للتأليف.

ونستفيد أيضاً خدمة النَّاس لا سيما طلاب العلم في نشر الخير في أوساطهم، وتعليمهم شرع الله تعالى، مع الصدق والإخلاص.

ونستفيد أيضاً تواضع المعلِّم للمتعلم، وخفض الجناح للمؤمنين، والتَّحلِّي بالخلق الحسن، وبالله التوفيق.

قال الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ذلك اليوم يوم عرفة، وهو يوم الجُمُعة في حجَّة الوداع، نزلت هذه الآية الكريمة والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفات عشيَّة ذلك اليوم [(١)].

(١) روى البخاري برقم (٤٥) واللفظ له، ومسلم برقم (٣٠١٧)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا؟، قَالَ أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ.

وفي لفظٍ لمسلم: فقد علِمتُ اليوم الذي أنزلت فيه، والساعة، وأين رسول الله ﷺ حين نزلت؛ نزلت ليلةَ جمع، ونحن مع رسول الله ﷺ بعرفات.

وفي الحديث دلالة واضحة على أنَّ هذه الآية نزلت بعرفة في يوم الجمعة، وهذا الذي عليه أكثر المفسِّرين، منهم ابن جرير الطبري، وابن العربي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

وجاء أنَّ هذا اليوم هو يوم الاثنين، أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (٨/ ٩٠)، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيفٌ؛ فإنَّ فيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيفٌ. لهذا قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد ذكره له: إنَّه غريبٌ، وإسناده ضعيفٌ.

وجاء أنَّ هذا اليوم هو يوم مسيرِهِ إلى حجَّةِ الوداع، أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (٨/ ٩١)، عن الربيع بن أنس رحمه الله.

وجاء أنَّه يوم الثامن عشر من ذي الحجَّة، يعني: بعد مرجع رسول الله ﷺ من حجَّة الوداع. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ولا يصحّ هذا ولا هذا.

=

= وجاء أنَّ هذا اليوم ليس بمعيَّن. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٩١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بإسناد مسلسل بالعوفيين، وكلُّهم ضعفاء.
والصحيح ما قد علِمتم؛ لنصِّ حديث عمر رضي الله عنه في المسألة.
قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسَمُرَة بن جندب، رضي الله عنهم، وأرسله الشعبي، وقتادة بن دعامة، وشَهْر بن حَوْشَب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري، رحمه الله ا.هـ.
انظر "تفسير ابن جرير الطبري" (٨/ ٨٦-٩١) "أحكام القرآن" لابن العربي (٢/ ٥٥١) "المحرَّر الوجيز" لابن عطية (٢/ ١٥٤) "زاد المسير" لابن الجوزي (٢/ ٢٨٦-٢٨٧) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٦/ ٥٩-٦٠) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٢/ ٢٠-٢١) "فتح القدير" للشوكاني (٢/ ١٣).
❊ تنبيه:
قول اليهود: لاتخذوا ذلك اليوم عيداً؛ فيه أنَّهم كانوا يبتدعون أعياداً في مناسباتٍ، وما زالت هذه سنَّتهم إلى اليوم، ما من يومٍ تحصل لهم فيه مناسبة إلا واتخذوا ذلِكَ اليوم عيداً.
وقد تشبَّه بهم كثيرٌ من المسلمين في هذا الباب وفي غيره، نسأل الله العافية.
وأمَّا عمر الفاروق رضي الله عنه فقد ردَّ عليهم أنَّ هذه الآية أُنزلت في يومي عيدٍ، يوم عرفة وهو عيدٌ من أعياد المسلمين، يعود علينا سنويَّاً، ويوم الجُمُعة وهو عيدٌ من أعياد المسلمين يتعود علينا أسبوعيَّاً.
ومن هنا؛ فإنَّه لا يجوز ابتداعُ عيدٍ لمناسبةٍ ما، ولا يُحتفل فيه، ولا يُبتدع فيه أيُّ نوعٍ من أنواع العبادات، واليوم الَّذي شرَّفه الله لا يُقال إنَّه يوم عيدٍ، كيوم عاشوراء، =

=

وأيام البيض، ويومي الاثنين والخميس حيث استُحبَّ فيها الصيام، فتُحدَث فيها العبادات الغير المشروعة، والأعمال الغير موافقة للشريعة، والاحتفال فيها، ونحو ذلك. بل يبقى الفضل فيها أن تُصام فقط، ولا يُخصَّص فيها ولا يُحدث فيها أيُّ نوعٍ من أنواع العبادات.

وهكذا ليلة الإسراء والمعراج، هي ليلةٌ مشرَّفة لكن لا يجوز الاحتفال بها، وإحداث البِدع، لأنَّ ذلِكَ كلَّه لم يثبت في الشرع، هذا إذا عُلِمَت الليلة، فكيف ولم يثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّها في ليلة معيَّنة !، وكلُّ ما قيل في ذلك من الأقوال فهو يحتاج إلى مستندٍ صحيحٍ، وليس ثَمَّ مستندٌ صحيحٌ.

وهكذا قلْ في يوم مولده، يوم الاثنين، فإنَّ النبي ذكره، ولم يذكر له عبادةً مخصَّصةً، ولم يحتفل به.

ولم يحتفل أيضاً بالتاريخ الذي وُلِدَ فيه، ولم يتّخذه عيداً، على القول بأنَّه في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وإلا فقد ذهب بعض المحقِّقين إلى أنَّه وُلِدَ في اليوم التاسع.

شاهِدُنا –بارك الله فيكم– أنَّه ليس كلّ يومٍ مفضَّلٍ ولا شهرٍ مفضّل يُتَّخذ عيداً، ويُحدث في أنواع العبادات، بل ما كان فاضلاً يبقى فاضلاً، فإن كان يوم عيدٍ اتَّخذناه عيداً كيوم عرفة والجُمعة، والفطر والأضحى وأيام التشريق، ومع ذلك لا نُحدِث فيها أيّ نوعٍ من أنواع العبادات إلا ما ثبتَ شرعاً. وإن كان ليس عيداً؛ فلا يُتَّخذ عيداً، ولا يُحدث فيه أيّ نوعٍ من أنواع العبادات إلا ما ثبت شرعاً، والله أعلم.

راجع بنحو هذا "تفسير القرآن الكريم" للعثيمين (تفسير سورة المائدة ١/ ٥٠-٥١).

وعاش ﷺ بعد نزولها إحدى وثمانين ليلةً [١].

وقد صرَّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّه أكمل لنا ديننا فلا ينقصه أبداً، ولا يحتاج إلى زيادةٍ أبداً [٢]؛

---

(١) أخرج الإمام ابن جرير الطبري في "تفسيره" (٨/ ٨١)، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريجٍ، قال: مكَثَ النبيُّ ﷺ بعد ما نَزَلَت هذه الآية إحدى وثمانين ليلةً. وإسناده حسنٌ.

وعزاه ابن الجوزي رحمه الله إلى سعيد بن جبير رحمه الله.

والذي يظهر والله أعلم أنَّه عاش أكثر من هذه الأيام بأيَّامٍ يسيرة، كما بيَّن ذلك ابن عطية رحمه الله. وأقرب ما يكون أنَّه عاش ثمان أو تسعاً وثمانين أو تسعين يوماً، وذلِكَ لأنَّ الرَّاجح من الخلاف في وفاته: أنَّه توفِّي في ربيع الأول، اليوم الثاني عشر، والله أعلم. انظر "المحرر الوجيز" (٢/ ١٥٤) "زاد المسير" (٢/ ٢٨٧).

(٢) اختلف العلماء في الإكمال المراد به في هذه الآية على أقوال:

فمنهم من قال: أكمَلَ اللهُ الإسلام فلم ينزل بعده حلالٌ ولا حرام، فأكمل فرائض الدين وحدوده وكلّ ما هو من شؤون الدِّين.

ومنهم من قال: أكمَلَ اللهُ لنا بإتمام الحجِّ، وإجلاء المشركين، فأفردنا في البلد الحرام، فلا يخالطنا مشركٌ.

ومنهم من قال: أكمَلَ الله لنا الفرائض، وانقطع النسخ.

وغير ذلك من الأقوال، وكلُّها صحيحة، إلا أنَّ القول بأنَّه لم تنزل بعد هذه الآية آيةٌ؛ ليس بصحيح؛ لأمرين:

الأمر الأول: لأنَّ الوحي لم ينقطع عن النبي ﷺ إلى أن قُبض، بل كان الوحي قبل وفاته ﷺ أكثر ما كان تتابعاً.

=

ويوضِّحه أكثر الأمرُ الثاني، وهو: أنَّه قد ثبت أنَّ هناك آياتٍ هي آخر ما نزل، كما في حديث البراء رضي الله عنه، أنَّ آخر آية نزلت (يستفتونك)، وآخر سورة (براءة). وكما في حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ آخر آيةٍ نزلت هي آية الربا. وقد ذكرناها في كتابنا "إتحاف ذوي الفضل والإيمان ببيان ما يتعلَّق بنزول القرآن". والله أعلم.

انظر "تفسير ابن جرير" (٨/ ٧٩-٨٣) "تفسير البغوي" (٣/ ١٣) "أحكام القرآن" لابن العربي (٢/ ٥٥١-٥٥٢) "المحرر الوجيز" (٢١٥٤) "زاد المسير" (٢/ ٢٨٧-٢٨٨) "الجامع لأحكام القرآن" (٦/ ٦٠) "تفسير القرآن الكريم" للعثيمين (تفسير سورة المائدة ١/ ٤٣-٤٤).

* تتمَّة:

ليس المراد بإكمال الدِّين أنَّه كان ناقصاً قبل اليوم ثم أكمله؛ بل المقصود: أنَّه كان ناقصاً نقصاناً مقيَّداً، فنقول: كان ناقصاً عمَّا كان عند الله أنَّه ملحقه به وضامُّه إليه، فالدِّين كاملٌ منذ أن خلق الله السماوات والأرض، ليس فيه نقصٌ، وإنما أنزل شرائعه وأحكامه شيئاً فشيئاً، كما كان الوحي يتنزَّل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. هذا وجهٌ.

ووجه ثاني: أنَّ الله أراد بقوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أنَّه وفَّقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدِّين غيره، فحجّوا فاستجمع لهم الدِّين أداءً لأركانه وقياماً بفرائضه. والله أعلم.

انظر "الجامع لأحكام القرآن" (٦/ ٦٠-٦٢).

* تنبيهٌ آخر:

جاء في هذا الباب حديثٌ أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" برقم (٣٥٤١٢)، قال: حدَّثنا محمد بن فضيل، عن هارون ابن أبي وكيع، عن أبيه قال: لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال: يوم الحجّ الأكبر، قال: فبكى عمر، فقال له رسول الله ((مَا يُبْكِيكَ؟))، قال: يا رسول الله، أبكاني أنَّا كنَّا في زيادةٍ من ديننا،

ولذلك خَتَمَ الأنبياءَ بنبيِّنا، عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً[(١)].

وصرَّح فيها أيضاً بأنَّه رضي لنا الإسلام ديناً فلا يَسْخَطه أبداً؛ ولذا صرَّح بأنَّه لا يقبل غيرَه من أحدٍ، قال ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ** ﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ** ﴾ [آل

= فأمَّا إذ كمُلَ فإنَّه لم يكمل شيءٌ قطّ إلا نقَصَ، قال ((صَدَقْتَ)). وأخرجه ابن جرير (٨/ ٨١).

وإسناده حسنٌ إلى أبي وكيع واسمه عنترة بن عبد الرحمن، وهو تابعيٌّ ثقة. وابنه هارون حسنُ الحديث. فهذا الحديث مرسلٌ لم يثبت عن النبي ﷺ.

(١) قال الحافظ ابن كثيرٍ في "تفسيره" (٢/ ١٩): هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلَّه، ولا حرام إلا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال تعالى ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا** ﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدِّين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه ا.هـ.

عمران:١٩]، وفي إكمال الدِّين وبيان جميع أحكامه كلُّ نِعَمِ الدَّارين؛ ولذا قال ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[1].

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في "مفتاح دار السعادة" (١/ ٤٥٢-٤٥٣): تأمَّل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدِّين بأنه لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناٍ بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدِّين، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقاً، وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيءٌ خُصُّوا به دون الأُمم، وفي إتمام النعمة بـ(على) المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة، فجاء (اتممت) في مقابلة (أكملت)، و(عليكم) في مقابلة (لكم) و(نعمتي) في مقابلة (دينكم) وأكَّد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله (ورضيت لكم الاسلام ديناً)، وكان بعض السلف يقول: يا له مِن دينٍ لو أن له رجالاً ا.هـ.

وقال رحمه الله في "اجتماع الجيوش الإسلامية" (ص:١-٣): الدِّين تارة يضاف إلى العبد وتارة يضاف إلى الرَّب، فيقال الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، ولهذا يقال في الدعاء: اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء.

ونسب الكمال إلى الدِّين والتمام إلى النعمة مع إضافتها إليه لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض النعمة قابلين لها، ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين (واجعلهم مثنين بها عليك قابليها وأتمها عليهم)، وأما الدِّين فلما كانوا هم =

وهذه الآيةُ الكريمةُ نصٌّ صريحٌ في أنَّ دينَ الإسلامِ لمْ يتركْ شيئاً يحتاج إليه الخلقُ في الدُّنيا ولا في الآخرة إلَّا أوضحه وبيَّنه كائنًا ما كان (١).

= القائمين به الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبه إليهم، فقال ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾، وكان الإكمال في جانب الدِّين، والتمام في جانب النعمة.

واللفظتان -وإن تقاربتا وتواخيتا- فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل؛ فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها، كما قال النبي ﷺ **(كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد)**، وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان حدوداً وفرائض وسنناً وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان.

وأما التمام فيكون في الأعيان والمعاني، ونعمة الله أعيان وأوصاف ومعانٍ.

وأما دينه فهو شَرْعُهُ المتضمن لأمره ونهيه ومحابه. فكانت نسبة الكمال إلى الدِّين، والتمام إلى النعمة أحسن. كما كانت اضافة الدين إليهم والنعمة إليه أحسن ا.هـ

(١) ومن الأدلة أيضاً: قول الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾**﴾ [العنكبوت:٥١].

وقوله تعالى ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾**﴾ [النحل:٨٩].

اختلف أهل العلم في قوله ﴿**تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾ هل هو على عمومه؟ على قولين: =

= القول الأول: ليس على عمومه، بل هو من العام المراد به الخاص، كقوله تعالى عن ريح عاد ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، ومعلوم أنها لم تدّمر السماء والأرض، وإنما دمرت تلك البقاع التي تسكنها عاد.

فقوله تعالى ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه.

القول الثاني: الآية تبقى على عمومها، والمراد أن كل شيء ذُكر مجملاً ومفصلاً، فما أجمل في القرآن فقد فُصِّل في موضع آخر منه، أو في السنة النبوية، قال تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وأقول: ما من شيء يحتاج الناس إلى بيانه ومعرفته من أمور الشريعة إلا هو موجود في الكتاب، إما مجمل بيَّنه الكتاب وفصَّله في موضعٍ آخر، أو بيَّنته السنة وفصّلته، والسنة وحيٌ، فما من مسألة شرعية إلا وهي موجودة في الكتاب الكريم نصاً أو إجمالاً، تضمناً، أو لزوماً، أو استنباطاً.

أما النص فأمثلته كثيرة، وأما الإجمال والاستنباط، فكقوله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فهذه الآية شاملة في تحريم كل خبيثة ومضرة، كشرب المسكر والدخان والمخدرات وأكل الحشيشة والشَّمَّة والقات، وغيرها من المضرات الحسية، وهكذا المضرات المعنوية في الدّين، هذه الآية شاملة لذلك، فإذا قال شخص: ما الدليل على تحريم المخدرات مثلاً أو شرب الدّخان؟ فالجواب: قال الله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾، ونظيرها قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٢٩-٣٠]، وأيُّ شيءٍ يضرّ الجسم فقد بيّن الله تحريمه في الكتاب الكريم، في مثل هؤلاء =

= الآيات الكريمات المباركات؛ إذن فالدِّين كاملٌ شاملٌ مبيّن لكل شيء من الأمور الدينية والدنيوية على حسب ما ذكرنا، وعلى الطريقة المذكورة، والله تعالى أعلم.

ومن الأدلة على كمال الدِّين وشموله: حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، عند الإمام مسلم برقم (٢٦٢)، عن سلمان رضي الله عنه، أنَّه قيل له: قد علَّمكم نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم كلَّ شيء حتى الخراءة؟ قال: فقال: أجل، لقد «**نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ**».

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عند الإمام مسلم أيضاً (١٨٤٤)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**».

وحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند الإمام البخاري برقم (٣١٩٢)، قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عند ابن أبي شيبة في "المصنف" برقم (٣٤٣٣٢)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**مَا تَركتُ شَيئاً ممَّا أَمَرَكُمُ اللهُ بهِ إلَّا وَقَد أَمَرتُكمْ بهِ، ولا تَركتُ شَيئاً ممَّا نَهاكُمُ اللهُ عنهُ إلا وقد نَهَيتُكم عنْهُ**».

وفيه: عبد الملك بن عمير بن سويد الكوفي المعروف بالقبطي؛ وهو مضطرب الحديث جداً، كما قال الإمام أحمد، وقال فيه: ضعيفٌ جداً. "تهذيب الكمال" برقم (٣٥٤٦).

وفيه: إبهام من أخبره.

وأخرجه هناد بن السري في "الزهد" برقم (٤٩٤) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الملك بن عمير عن ابن مسعود به.

وفيه الانقطاع بين ابن مسعود وعبد الملك كما علمتم. =

= وله طريق أخرى أخرجها الخطيب البغدادي في "المتفق والمفترق" برقم (١٨٢٧)، والراجح فيها الانقطاع.

قال الإمام الدارقطني رحمه الله في "العلل" برقم (٨٧٥): يرويه إسماعيل بن أبي خالد، واختلِف عنه، فقال هبيرة التمار أبو عمر المقري: عن هشيم، عن إسماعيل، عن زبيد، عن مرة، عن عبد الله.

وغيره يرويه عن إسماعيل، عن زبيد، مرسلاً عن ابن مسعود؛ وهذا أصح.

وقيل: عن عمر بن علي المقدمي، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود ا.هـ

وللحديث شاهدٌ: أخرجه الشافعي في "المسند" برقم (١١٥٣)، ومن طريقه أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" برقم (٢٦٨) والبيهقي في "شعب الإيمان" برقم (١١٤١) من حديث المطلب بن حنطب، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والمطلب تابعي، وروايته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسلة، قال أبو حاتم رحمه الله: عامة حديثه مراسيل . وقال محمد بن سعد: كان كثير الحديث، وليس يحتج بحديثه؛ لأنه يرسل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً وليس له لقي وعامة أصحابه يدلسون. "تهذيب الكمال" برقم (٦٠٠٦).

وله شاهدٌ آخر، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ذكره الخازن في "تفسيره".

وأمَّا ما أخرجه الإمام أحمد في "مسنده" (٥/ ١٥٣) برقم (٢١٣٩٩) فقال: حدثنا ابن نمير، ثنا الأعمش، عن منذر، حدثنا أشياخ من التيم، قالوا: قال أبو ذر رضي الله عنه : لقد تركنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً.

فهو ضعيفٌ.

فيه: جهالة أشياخ منذر. =

= وله طريق أخرى أخرجها الطبراني في " المعجم الكبير" (١٦٢٤) فقال: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطرٍ، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر رضي الله عنه، به.

وهو معلٌّ، قال الحافظ الدارقطني رحمه الله في "العلل" برقم (١١٤٨): يرويه ابن عيينة عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن أبي ذر.

وقيل: عن الثوري أيضاً وليس بصحيح عنه.

وغير ابن عيينة يرويه عن فطر عن منذر الثوري عن أبي ذر مرسلاً، وهو الصحيح.

وقال شعبة والثوري وابن نمير: عن الاعمش عن منذر الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر ا.هـ

قلتُ: وجاء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، أخرجه أبو يعلى في "مسنده" برقم (٥١٠٩) فقال: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا يحيى، عن فطر بن خليفة، عن عطاء قال: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما في السماء طير يطير بجناحه إلا ذكرنا منه علماً.

وفيه انقطاع هو بين عطاء بن أبي رباح وأبي الدرداء، فإنه لم يسمع منه.

واختُلِف على فطر بن خليفة كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجرٍ رحمه الله، وأخرجه أحمد بن منيع، من طريق فطر عن أبي يعلى منذر، عن أبي الدرداء، قال الحافظ: رواته ثقات، إلا أنه منقطع. انظر "المطالب العالية" برقم (٣٩٤٥).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في "إعلام الموقعين"(٤/ ٣٧٥-٣٧٦): وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلَّمهم كل شيء، حتى آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم والقيام، والقعود، والأكل والشرب، والركوب، والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة =

= والموت، ووصف لهم العرش، والكرسي، والملائكة، والجن، والنار، والجنة، ويوم القيامة وما فيه، حتى كأنه رأي عين، وعرَّفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرَّفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرّفه نبي لأمته قبله، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم، والعذاب للروح والبدن ما لم يعرِّف به نبي غيره، وكذلك عرَّفهم ﷺ أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده؛ اللهم إلا إلى من يبلغه إياه، ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً، وكذلك عرَّفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة ا.هـ

وانظر أوسعَ مِنْ هذا الكلام في كتابه "فتاوى إمام المفتين ورسول ربِّ العالمين" (ص:١٧٨-١٧٩).

وقال العلَّامة السعدي رحمه الله في "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين" كما في "مجموع رسائله" (٦/ ٦٤): قال الله تعالى ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾**﴾ [آل عمران:١٦٤].

هذه الآية دلَّت على كمال علمِ الرسول ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه =

للهدى والصَّلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحدٍ من البشر -الأولين والآخرين- وجود هذه العلوم العالية النَّافعة الواسعة في شخصٍ واحدٍ، وحصول التَّعليم منه لأُناسٍ كانوا قبل ذلِكَ في غايةِ الجهل والضَّلال المبين، حتَّى انتقلوا من هذا الجهل والضَّلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوِّع؟ ثمَّ مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده -أو وجود ما يُقاربه- في شخصٍ واحدٍ نفذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إنَّ في ذلك لعبرةً للمعتبرين، وآياتٍ لأُولي الألباب، حيث بُعث هذا النبيّ الأمّي الذي لا يقرأ كتاباً، ولا يخطّ بيمينه، ولا جالس أحداً من العلماء السابقين فتعلَّم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدِّين، فزالت به الجهالات والضَّلالات، وتقشَّعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمَّته أسباب الهلاك والرّدى، شهِدَ بهذا الأولياء والأعداء، واتَّفق الخلق على أنَّه لم يوجد أحدٌ يُقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحدٌ أو يُدانيه وكلُّ خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلا كلّ مباهتٍ مكابر. ﴿**وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾**﴾ [الشورى:١٦] ا.هـ.

* من أوجه كمال الدِّين:

نذكر كلاماً جميلاً للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي في هذا الباب ما يسَّر الله، لِمَا فيه من القوَّة والجزالة والوضوح.

قال رحمه الله في "تنزيه الدِّين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله" كما في "مجموع رسائله" (٦/ ١٧٠-١٧١): الدِّين الإسلامي هو دين العدل والرحمة والعلم والحكمة، وهو دين المدنية الزَّاهرة المبنية على صلاح القلوب والأرواح =

= وصلاح الدِّين والدنيا، وعلى السَّعي إلى الكمال والرقي في معارج السعادة والفلاح، وهو الدِّين الذي حثَّ على كلِّ خيرٍ ونفْعٍ وصلاحٍ، وهو الدِّين الذي ساوى بين طبقات الخلق في القيام بالعدل والحقوق، فلم يبح لهم الظلم بوجهٍ من الوجوه؛ فالغني والفقير والشريف والوضيع والقوي والضعيف والعزيز والذليل كلّهم عنده سواء، قد شملهم عدله ورحمته، وهو الدِّين الذي يحثُّ على القيام بما خلق الله الخلق لأجله، وهو عبادة الله وحده والإنابة إليه، والتَّعبد له ظاهراً وباطناً، ودوام الافتقار إليه، وهو الدِّين الذي يأمر بجميع معالي الأخلاق ومحاسنها، وينهى عن جميع مساويها وأراذلها، وهو الدِّين الذي تصلح به الأحوال؛ فكما حثَّ على القيام بمصالح الدنيا النافعة، وكما أمر بتعلّم العلوم والفنون التي ترجع إلى الإنابة إلى الله وعبوديته، فقد حثَّ على تعلّم العلوم والفنون التي تعين على قيام حياة الأمَّة، وإصلاح أحوالها واستعدادها لمقاومة الأمم الأخرى، ومغالبتها والوقاية من شرورها وأضرارها، وكما أمر بتعلّم علوم التوحيد والعقائد والأخلاق التي ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح فقد أمر بالتعلّم والتّفقه في الأحكام التي ترجع إلى القيام بالعبادات الظاهرة والمعاملة العادلة، والقيام بجميع الحقوق المتنوعة على وجه الوفاء والعدل وموافقة الحكمة، وكذلك أمر بتعلّم الفنون الحربية والآداب العسكرية، والاستعدادات السياسية والصناعات النَّافعة، فقال تعالى في جانب مقاومة الأعداء ومهاجمتهم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وهذا شاملٌ لكلِّ ما تتعلق به الاستطاعة من أنواع العلوم والفنون العسكرية الموجودة في وقت التنزيل، والتي تحدث إلى يوم القيامة، من قوّة عقلية وسياسة داخلية وخارجية، وصناعات نافعة وتعلم رمي وركوب، وسائر الفنون التي لا تتم مقاومة الأعداء إلا بها، وقال في جانب المدافعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، فأمر المؤمنين =

= بأخذ حذرهم من عدوهم، وهو التَّوقي والاحتماء من عدوان الأعداء، بكلِّ وسيلةٍ وسبب تحصل به الوقاية من شرِّهم ومكائدهم وأسلحتهم ومداخلهم ومخارجهم؛ وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان.

وكلُّ آيةٍ أو حديث فيه الأمر بالجهاد والحث عليه فإنَّه يدخل فيه القيام بجميع الشئون التي تعين على الجهاد، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة، وهذا من البراهين على أنَّ هذا الدِّين والشريعة تنزيل من حكيمٍ حميدٍ عليمٍ بكلِّ شيءٍ، فإنَّ إرشاداته العالية كما ترى تصلح لكلِّ زمانٍ ومحل؛ بل لا تصلح الأمور إلا بها.

وكما أنَّه أمر بالاستعداد بالقوة المادية فقد أمر بالاستعداد بالقوة المعنوية، حيث أمر الناس وحثَّهم على الاجتماع والأُلفة بين المسلمين، والاتفاق على جميع مصالحهم الكلية؛ كما أمر بذلك في المصالح الجزئية في كلِّ ما يأتون وما يذرون في أحوالهم الدَّاخلية وأحوالهم الخارجية، وأمرهم بالإيمان الكامل والتوكّل القوي على الله، وتمرين النّفوس على القوة والشجاعة والتدرّب في كلِّ أمرٍ نافعٍ في الدِّين والدنيا؛ فالدِّين يحثّهم على القيام بجميع الأسباب النافعة، التي تصل إليها قواهم واستطاعتهم، وعلى التوكل على مُسبِّب الأسباب وخالقها ومدبّرها، ويبيِّن لهم أنَّ الأمرين متلازمان، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فالأسباب وإن عظمت وقويت فإنَّها محكومة بقضاء الله وقدره، ولا يتمّ للقائم بها أمره من كلِّ وجهٍ إلا بتوكّله واعتماده على الله تعالى، مسبّبها ومصرّفها والقابض على ناصيتها وأزمتها.

ويخبركم الدِّين مع ذلك أنَّ التوكل وحده بدون فعل الأسباب وبدون القيام بالمقدور من الشئون الدينية والدنيوية؛ ليس بتوكل حقيقي، بل هو ضعفٌ وعجزٌ، فكلما قوي توكّل المسلمين على ربّهم قويت أعمالهم النَّافعة، وقويت هممهم، وانبعثت عزائمهم إلى جميع مصالحهم، والربّ تعالى لقيامهم بالأمرين وتحقيقهم للتوكل عليه واجتهادهم في فعل الأسباب يعينهم، وييسر لهم أمورهم، =

= ويحقِّق لهم رجاءهم، ويُنزِّل عليهم من نصره ومعونته وتأييده بحسب قيامهم بالأمرين؛ والنصوص من الكتاب والسنّة تحثُّ على الأمر بالتوكل على الله في كلِّ الأمور، والأوامر بالأخذ بالأسباب النافعة لا تنحصر، بل الدِّين كلُّه قيامٌ بالأسباب، وتوكّلٌ على مسبِّبها ومصرّفها، **وهذا الذي نبَّهنا عليه من الدِّين الإسلامي هو من الكمال الذي لا يقاربه كمال** ا.هـ.

وقال رحمه الله في "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين" كما في "مجموع رسائله" (٦/ ٦٦): من محاسن الإسلام وقيامه بكلِّ إصلاحٍ أنَّه ليس عقائد وأخلاقاً فقط، وإنما هو -مع ذلك- موجّه وحاكم وصاحب دولةٍ وجهادٍ، فالدِّين الإسلامي -بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة، كما هو مشروحٌ مفصَّلٌ- من أكبر الأدلة على أنَّه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، عليمٍ بكلِّ شيءٍ، إذ شرع لهم هذا الدِّين الذي لم يبق خيراً إلا دلَّ عليه وحثَّ عليه، ولا شرَّاً إلا حذّر منه، ولا حقَّاً إلا أقامه، ولا عدلاً إلا جعل له مسالك وطرقاً يقوم عليها. فهو دينٌ ودولةٌ، وجامعٌ بين مصالح الدِّين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزّة والقوّة والمقاومة لكلِّ معاندٍ محادٍ معادٍ للدين وأهله، عكس ما نبذه الملحدون أنَّه دينٌ بلا دولة وآخرة ولا دنيا معها، فإنَّهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء، والله أعلم ا.هـ.

وله رحمه الله كلامٌ كثيرٌ في هذا الباب في غاية القوة والوضوح، خصوصاً في رسالته الموسومة بـ"أصول عظيمة من قواعد الإسلام"، وفي رسالته "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين"، وفي رسالته "أصول الدِّين"، وكلُّها مطبوعة ضمن مجموع رسائله (المجلد السادس).

وسنضرِبُ لذلك المثل ببيان عشر مسائل عِظَامٍ عليها مدار الدُّنيا، من المسائل التي تهمّ العالَمَ في الدَّارين، وفي البعض تنبيهٌ لطيفٌ على الكلِّ:

الأولى: التَّوحيد.

الثانية: الوَعظ.

الثالثة: الفرْقُ بين العملِ الصالحِ وغيرِهِ.

الرابعة: تحكيم غير الشرع الكريم.

الخامسة: أحوال الاجتماع بين المجتمع.

السادسة: الاقتصاد.

السابعة: السياسة.

الثامنة: مشكلة تسليط الكفَّار على المسلمين.

التاسعة: مشكلة ضعف المسلمين عن مقاومة الكفَّار في العَدَدِ والعُدَدِ.

العاشرة: مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع.

ونوضِّحُ علاج تِلك المشاكِلِ من القرآن، وهذه إشارةٌ خاطفةٌ إلى بيان جميع ذلك بالقرآن تنبيهاً به على غيره.

❊ ❊ ❊ ❊

(المَسْأَلَةُ الأُولَى: التَّوحِيدُ)

١ - أَمَّا الأولى: وهي التَّوحيد [١]:

فقد عُلِمَ باستقراء القرآن أنَّه منقسِمٌ إلى ثلاثةِ أقسام [٢]:

(١) التَّوحيد: مصدر وحَّد يوحِّد توحيد، جعل الشيء واحداً، وهو إفراد الله تعالى بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.
وهو أساس الدِّين ورأسه، وبه صلاح العبد وفوزه بكلِّ نعيم إن تمسَّك به، وفساده وخسارته إذا تخلّا عنه. وبه قامت السماوات والأرض، وخُلقت الخلائق، وبُعثت الرسل، وأنزلت الكتب، وعلى ذلك أدلةٌ من القرآن والسنة.
بل إنَّ القرآن والسنة كلَّه توحيدٌ. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في "مدارج السالكين"(٣/ ٥٣٢): وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم توحيده.
فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم ا.هـ
(٢) معنى الاستقراء: أي: من خلال قراءة القرآن والسنة وتتبع هذا الموضوع نجد أنَّ التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

=

وقد نصَّ على ثبوت هذه الأقسام بالاستقراء جماعةٌ من أهل العلم:
منهم المؤلِّف رحمه الله يقول في "أضواء البيان"(٣/ ٤١٠-٤١١): وقد دلَّ استقراء القرآن على أنَّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: توحيده في ربوبيته، ...الثاني: توحيده جلَّ وعلا في عبادته، ... النوع الثالث: توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته ...ا.هـ باختصار شديد.
وذكر لكلِّ أنواعٍ أدلة من القرآن، بما لا يستغني طالب علمٍ عن هذا المصدر لهذه الفائدة.
وقال الإمام عبد العزيز ابن باز رحمه الله في "تعليقاته على متن الطحاوية" ضمن "التعليقات الأثرية على العقيدة الطحاوية" لأحمد الزهراني (ص:١١): اعلم أن التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ينقسم إلى أقسام ثلاثة حسب استقراء النصوص من الكتاب والسنة وحسب واقع المكلفين: ...القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله سبحانه، وهو الإيمان بأنه الخالق الرازق المدبر لأمور خلقه، المتصرف في شئونهم في الدنيا والآخرة، لا شريك له في ذلك ...
القسم الثاني: توحيد العبادة ويسمى توحيد الألوهية وهي العبادة ...
القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو الإيمان بكل ما ورد في كتاب الله العزيز، وفي السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ من أسماء الله وصفاته، وإثباتها لله سبحانه على الوجه الذي يليق به، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ا.هـ
وقال العلامة الشيخ العثيمين رحمه الله في "تقريب التدمرية"(ص:١١٠): وقد قسَّمه العلماء بالتَّتبع والاستقراء إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: توحيد الربوبية، القسم الثاني: توحيد الألوهية، القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات ا.هـ وانظر "الجواب المفيد في أقسام التوحيد" له (ص:٨).

الأول: توحيده جلَّ وعلا في ربوبيته [1].

= وقال العلامة الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في "التحذير من مختصرات محمد علي الصابوني في التفسير"(ص:٣٠): هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة، وابن جرير الطبري، وغيرهما، وقرَّره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرَّره الزبيدي في "تاج العروس"، وشيخنا الشنقيطي في "أضواء البيان" في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراءٌ تامٌّ لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء ا.هـ "التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير"(ص:٣٠).

وهذه الأقسام الثلاثة متَّفقٌ عليها، ونصَّ عليها جماعةٌ من العلماء، منهم:

الإمام ابن جرير الطبري، ت:٣١٠هـ رحمه الله، انظر "تفسيره"(٢١/ ٢٠٨). والإمام الطحاوي، ت:٣٢١هـ رحمه الله، انظر مقدمة متن "العقيدة الطحاوية". والإمام ابن حبَّان البستي أبو حاتم، ت:٣٥٤هـ رحمه الله، "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" كما في رسالة "دلائل أقسام التوحيد" لعبد الرزاق البدر (ص:٣٨). والإمام ابن بطَّة، ت:٣٨٧هـ رحمه الله، انظر "الإبانة على أصول الديانة"(ص:١٩٥). والإمام القرطبي، ت:٦٧١هـ رحمه الله، انظر "الجامع لأحكام القرآن"(١/ ١٣٩). وشيخ الإسلام ابن تيمية، ت:٧٢٨هـ رحمه الله، انظر "مجموع الفتاوى"(ج:٦،٢،١). والإمام ابن القيم، ت:٧٥١هـ رحمه الله، انظر "مدارج السالكين"(ج:٣،٢،١)، وغيرهم.

(١) هذا النَّوع الأول من أنواع التوحيد؛ توحيد الربوبية: وهو إفراد الله تعالى بأفعاله، كالخلق والملك والتَّدبير.

والرَّبُّ: في الأصل؛ مصدر ربَّ، يرُبُّ، بمعنى: نشأ الشيء من حالٍ إلى التَّمام، ويُقال: ربَّهُ، وربَّاهُ، وربَّبَهُ، ويُطلق في لغة العرب على عدَّة معانٍ: =

=
يُطلق على معنى: المالك، والسيِّد، والمدبِّر، والمصلح، والقائم، والجابر، والمنعم، ونحو ذلك.
واختُلِفَ في اشتقاقه؛ فقيل: مشتَّقٌ من التربية، أي: أنَّ الله عزَّ وجل مدبِّرُ الخلق، ومربِّيهم، ومنه قول الله عزَّ وجلّ ﴿**وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم**﴾ [النساء:٢٣]، فسمَّى الله عزَّ وجل بنت الزَّوجة من الزَّوجِ الأوَّلِ ربيبةً؛ لأنَّه ربَّاها زوج أمِّهَا.
وقيل غير ذلك.
وعلى الأوَّل يكون صفة فعلٍ من التربية.
وعلى أنَّه بمعنى مالك وسيِّد فيكون صفة ذاتٍ.
فتكون كلمة (الرَّبِّ) صفة فعلٍ باعتبار التدبير، مشتَّقٌ من التربية.
وتكون صفة ذاتٍ باعتبار أنَّه المالك سبحانه وتعالى.
❋ حكم إطلاق كلمة (الرَّبِّ) على غير الله:
كلمة (الرَّبِّ) بالألِفِ والَّلام المعرّفة لا تُطلق إلا على الله سبحانه وتعالى.
أمَّا إطلاقها على غير الله تعالى؛ فعلى حالتين:
الأولى: (الرَّبُّ) بالألف والَّلام المعرّفة؛ هذا لا يجوز، أو يسمّي بها نفسه لا يجوز.
الثانية: (ربّ) بدون ألفٍ ولامٍ يجوز بشرط أن يأتي بالإضافة، مثال ذلك: يقول: ربُّ البيت، ربُّ النَّاقةِ، ربُّ فلانٍ؛ أي: سيّدُهُ ومالكه، والَّذي ربَّاه، ونحو ذلك، فبالإضافة يجوز، ﴿**قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ [يوسف:٥٠]، أي: إلى سيِّدك ومالكك، ﴿**يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا**﴾ [يوسف:٤١]، أي: سيّده ومالكه، وقال النبيُّ ﷺ كما جاء في الصحيحين، من حديث زيد بن خالد الجهني: «**مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا**
=

وهذا النَّوع من التَّوحيد جُبِلَت عليه فِطرُ العُقلاء. قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ إلى قوله ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١]، والآيات بنحو ذلِك كثيرةٌ(١).

= سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ، وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا». أي: صاحبها ومالكها القائم عليها.

أمَّا إذا كانت بدون إضافة هكذا (ربّ) مثل هذا الحال لا يجوز إطلاقها على غير الله عزَّ وجلَّ.

فالتَّسمِّي بـ(الرَّبِّ) و(ربّ)؛ لا يجوز، أو تدعوه (يا ربّ) باعتبار أنَّه سيِّدُكَ هذا لا يجوز، لكن لو قلتَ له: يا ربّ فلان ابن فلان؛ أي: يا سيّد فلان ابن فلان فهذه إضافة ، يجوز.

الخلاصة: أنَّ كلمةَ (الرَّبِّ)؛ لا تُقال إلا لله.

انظر "النهاية" لابن الأثير (٢/ ١٧٩) "تفسير ابن جريرٍ الطبري"(١/ ١٤٢-١٤٤) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١/ ١٨١-١٨٢) "المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية (١/ ٦٧) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ٣٦) "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"(٣/ ٢٩-٣٠) "عقيدة التوحيد" للفوزان (ص: ٢٦-٢٧) "فقه الأسماء الحسنى" للشيخ عبد الرزاق البدر (ص:٧٩-٨٠).

(١) نعم؛ الأدلة على ذلِكَ كثيرةٌ، منها: قال تعالى ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١]، وقال تعالى =

وإنكار فرعون لهذا النّوع في قوله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣] مكابرةٌ وتجاهلٌ؛ بدليل قوله ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقولِهِ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] [1]؛ ولهذا كان القرآن ينزل بتقرير هذا النَّوع من التوحيد

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]، وقال تعالى ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، وقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥]، وقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف:٨٧].

(١) نعم؛ فرعون أنكر الربوبية، ظاهراً، وإلا فقد كان مستيقناً أنَّ الله هو الربّ وحده لا شريك له.

قال العلامة ابن أبي العز ﵀ في "شرح الطحاوية"(٣١-٣٢): وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع؛ فرعون، وقد كان مستيقناً به في

=

الباطن، كما قال تعالى ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] وقال تعالى ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤]، ولهذا لما قال: وما رب العالمين؟ على وجه الإنكار له تجاهل العارف قال له موسى ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٤-٢٨] ا.هـ

وأنكر الربوبية أيضاً الدّهرية من الفلاسفة وغيرهم؛ ينكرون الربوبية مكابرة، ونسبوا إلى الدَّهر لأنهم جعلوا الدهر هو المميت المتصرف في الخلق!!!.

قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" عند هذه الآية: يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدَّهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا =

بصيغة استفهامِ التَّقرير، كقوله ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقوله ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقوله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد:١٦]، ونحو ذلك؛ لأنَّهم يقرّون به [1].

وهذا النوع من التوحيد لم ينفع الكفَّار؛ لأنَّهم لم يوحدوه جلَّ وعلا في عبادته، كما قال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦]،

= ٱلدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون...الخ.

ومن المعاصرين من أنكر الربوبية وهم: الشيوعية البعثية والاشتراكية، أنكروا ذلك مكابرةً، وطعنوا في الله تعالى -عياذاً بالله من ذلك.

قال الإمام مقبل الوادعي رحمه الله في "السيوف الباترة لإلحاد الشيوعية الكافرة"(ص:١٩): الشيوعية لا تؤمن بالله، وتقول: إن الله خرافة!!، وتقول: إن الدين أفيون الشعوب!! وتسب نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم !! قاتلهم الله أنى يؤفكون، مكابرة ظاهرة ما سبقهم إليها كفار قريش...الخ.

وقال رحمه الله في المرجع السابق: ... فأنت تجد أن فرعون خير من الشيوعية إذ اعترفوا بالله وقت الشدة، وأما الشيوعية المجرمون فإنهم يقولون: إنه أمر طبيعي، وهكذا نسمعهم من إذاعتهم يقولون الحوادث الطبيعية...الخ.

(١) قال العلامة ابن أبي العز رحمه الله في "شرح الطحاوية"(ص:٣١): ...هذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل ... ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]...الخ.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الآية [يونس:١٨](١).

النَّوع الثاني: توحيده جلَّ وعلا في عبادته (٢):

(١) هذا واضحٌ، وفيه أنَّ من أقرَّ بتوحيد الربوبية يلزمه أن يأتي بتوحيد الألوهية، وإلا فهو متناقضٌ مكابرٌ.

يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، وقال تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

وانظر كلاماً جميلاً للعلَّامة صالح الفوزان –حفظه الله– في كتابه "عقيدة التَّوحيد" (ص:٤١-٤٣).

وهذا مسلكٌ من مسالِك الاستدلال على توحيد الألوهية.

راجع كتاب "تعريف الخلف بمنهج السلف" للبريكان (ص:٢٤٦-٢٤٧).

(٢) هذا يُقال له توحيد الألوهية، فإنَّ له عدَّةَ أسماءٍ؛ يُقال له: توحيد العبادة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الإرادة والطَّلب. ولَكَ أن تعبِّر بها شئت منها.

فقد جاء عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال لمعاذ بن جبلٍ رضي الله عنه «**فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُهُمْ إِلَيْهِ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**»، وفي لفظٍ «**إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ**» هذا دليل تسميته ألوهية، وفي لفظٍ «**إِلَى عِبَادَةِ اللهِ**» وهذا دليل تسميته عبادة.

= وسمِّي طلبي؛ لأنَّه مطلوب منَّا أن نأتي به، فإنَّنا مأمورون به، والأمر: عين الطلب. والأدلة على ذلك كثيرة معلومة لدى كل من له أدنى اطلاع على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

راجع في ذلك: "الرسالة التدمرية" لشيخ الإسلام (ص:٣) "مدارج السالكين" لابن القيم (١/ ٥٣١-٥٣٢) "شرح الطحاوية" لابن أبي العز (١/ ٤٢) "الدين الخالص" لمحمد صديق حسن (١/ ٥٦) "معارج القبول" لحافظ حكمي (١/ ٩٨) "أضواء البيان" للشنقيطي (٣/ ٤١٠-٤١١) "التعليقات على متن الطحاوية" لابن باز، ضمن "التعليقات الأثرية على العقيدة الطحاوية" لأحمد الزهراني (ص:١١) "مجموع فتاوى ومقالات ابن باز"(٢/ ٧١).

والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ا.هـ "العبودية" لشيخ الإسلام (ص:٢٣).

فهي مبنيَّة على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح. فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع. "مدارج السالكين" لابن القيم (١/ ٧٧).

والألوهية: الإلهُ هو المعبود، فالله مألوه أي: معبود. ولهذا؛ كان لفظ الجلالة (الله) مشتَّقاً على الصحيح، وكان اشتقاقه من أَلَه يأْلَهُ أُلْهَةً وإِلاَهَةً وأُلوهِيَّةً، بمعني: عُبِدَ عِبَادَةً. انظر "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب (مادة: أَله) "الأسماء والصفات" للبيهقي (ص:٤٩-٥١) "المحرر الوجيز" لابن عطية (١/ ٦٣) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١/ ١٨١-١٨٢) "تفسير الطبري"(١/ ١٢١) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ٣٠-٣١) "تفسير النسفي"(١/ ٣٠) "بدائع الفوائد" لابن القيم (١/ ٢٦-٢٧) "شرح العقيدة الواسطية" للهراس (ص:١٠-١١) ت: الشيخ جميل الصلوي. "فتح المجيد شرح كتاب التوحيد" (ص:١١-١٢) "التمهيد لشرح كتاب التوحيد" للشيخ صالح آل الشيخ (١/ ١٦) "إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد" للشيخ الفوزان (١/ ١٨) "شرح كتاب فضل الإسلام" للشيخ صالح آل الشيخ (ص:١٥٦-١٥٧) "معارج القبول" لحافظ حكمي (١/ ٦٦-٦٧).

وهو الذي وقَعَتْ فِيه جميع المعارك بين الرسل والأمم، وهو الذي أُرسلت الرسل لتحقيقه [1].

(١) نعم؛ هذا واضحٌ، وقد ذكر المؤلِّف بعض الأدلة على ذلك، ومن الأدلة ما ذكره الله أنَّ ما من رسولٍ إلا وقال لقومه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]. ولأهل العلم كلامٌ نفيسٌ في ذلك، راجع "العبودية" (ص:٤و٢٠) و"قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة" (ص:٣٦-٣٧) و"الوصية الكبرى" (ص:٧-٨و٣٣) كلُّها لشيخ الإسلام ابن تيمية. و"مجموع الفتاوى" (٨/ ٢١٩) "مدارج السالكين" لابن القيم (١/ ٧٨) "معارج القبول" لحافظ حكمي (٢/ ٤٠٢-٤١٠) وفيه بحثٌ نفيس في نزاع الرسل مع أممهم في هذا النوع. "الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين" للعلامة السعدي ضمن مجموع رسائله (٦/ ٥٦٤-٥٦٦)، رسالة "بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعاً وبعث به خاتمهم محمداً ﷺ" للإمام ابن باز. وهي رسالةٌ مهمّة جدًّاً. "الشريعة الإسلامية ومحاسنها وضرورة البشر إليها" للإمام ابن باز (ص:٦-١٥ "القول المفيد" للعثيمين (١/ ١٥-١٦) "عقيدة التوحيد" للفوزان (ص:٤٦-٤٧). وراجع كتب التفاسير عند الآيات التي تبيِّن ذلك.

* من أساليب بيان توحيد الألوهية:

بيان الله تعالى اتِّفاق دعوة الرسل على توحيد الألوهية يُعتبر أسلوباً من أساليب بيان هذا النوع ووجوبه، والأساليب في ذلك متعدِّدة نذكر ما يسَّر الله منها، نقلاً من كتاب العلامة صالح الفوزان "الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد" (ص:٤٦-٥٠)، قال -حفظه الله:

لَمَّا كان توحيد الربوبية قد أقرَّ به الناسُ بموجب فطرهم ونظرهم في الكون، وكان الإقرار به وحده لا يكفي للإيمان بالله ولا ينجي صاحبه من العذاب، ركزت دعوات الرسل على توحيد الإلهية، خصوصاً دعوة خاتم الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل السلام، فكان يطالب الناس بقول: لا إله إلا الله، المتضمنة لعبادة =

الله، وترك عبادة ما سواه، فكانوا ينفرون منه ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥].

وحاولوا مع الرسول ﷺ أن يترك هذه الدعوة ويخلي بينهم وبين عبادة الأصنام، وبذلوا في ذلك معه كل الوسائل؛ بالترغيب تارة وبالترهيب تارة، وهو عليه الصلاة والسلام يقول: (**والله، لو وضعوا الشمس بيميني، والقمر بشمالي، على أن أترك هذا الأمر؛ لا أتركه حتى يظهره الله أو أهلك دونه**).

وكانت آيات الله تتنزل عليه بالدعوة إلى هذا التوحيد، والردّ على شبهات المشركين، وإقامة البراهين على بطلان ما هم عليه.

وقد تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية، وها نحن نذكر جملة منها؛ فمن ذلك:

١- أمره سبحانه بعبادته وترك عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

٢- ومنها إخباره سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

٣- ومنها إخباره أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦].

٤- ومنها الاستدلال على توحيد الإلهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير؛ كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ =

= [البقرة:٢١] ، وقوله : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت:٣٧]، ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل:١٧].

٥- ومنها الاستدلال على وجوب عبادته سبحانه بانفراده بصفات الكمال وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم:٦٥]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقوله عن خليله إبراهيم : إنه قال لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم:٤٢]، وقوله : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وقوله : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

٦- ومنها تعجيزه لآلهة المشركين؛ كقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢]، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦]، وقوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النحل:٧٣]، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج:٧٣].

٧- ومنها تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن =

= دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف:٥].

٨- ومنها بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤]، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

٩- ومنها رده سبحانه على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له سبحانه؛ لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا =

﴿يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]، وقوله سبحانه : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦]؛ فبين سبحانه في هذه الآيات أن الشفاعة ملكه وحده، لا تطلب إلا منه، ولا تحصل إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له .

١٠ - ومنها أنه بين سبحانه أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه، ومن هذا شأنه لا يصلح للعبادة، كما في قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

١١ - ومنها أنه سبحانه ضرب أمثلة كثيرة في القرآن يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله سبحانه : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١]؛ شبَّه سبحانه التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه بالسماء، وشبَّه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد . هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة في القرآن ذكرها الله سبحانه لبيان بطلان الشرك وخسارة المشرك في الدنيا والآخرة.

وما سقناه في هذا الدرس من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية وإبطال الشرك قليل من كثير، وما على المسلم إلا أن يقرأ القرآن بتدبر ليجد الخير الكثير =

وحاصله هو معنى لا إله إلا الله[١]، فهو مبني على أصلين: هما النَّفي والإثبات من (لا إله إلا الله).

= والأدلة المقنعة والبراهين الساطعة التي ترسخ عقيدة التوحيد في قلب المؤمن وتقتلع منه كلَّ شبهة ا.هـ

(١) نعم؛ توحيد العبادة هو معنى لا إله إلا الله، لهذا يقول أهل العلم: معنى لا إله إلا الله؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله.

قال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي ﷺ في "معارج القبول"(٢/ ٤١٦): فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله. لا إله: نافياً جميع ما يعبد من دون الله، فلا يستحق أن يعبد. إلا الله: مثبتاً العبادة لله، فهو الإله الحق المستحق للعبادة، فتقدير خبر "لا" المحذوف "بحق" هو الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنة...وأما تقديره بموجود فيفهم منه الاتحاد، فإن الإله هو المعبود، فإذا قيل لا معبود موجود إلا الله، لزم منه أن كل معبود عبدٍ بحق أو باطل هو الله!!!؛ فيكون ما عبده المشركون من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأحجار والملائكة والأنبياء والأولياء وغير ذلك هي الله!!! فيكون ذلك كله توحيداً!!! فما عبد على هذا التقدير إلا الله إذ هي هو، وهذا والعياذ بالله أعظم الكفر وأقبحه على الإطلاق، وفيه إبطال لرسالات جميع الرسل، وكفر بجميع الكتب وجحود لجميع الشرائع وتكذيب بكل ذلك، وتزكية لكل كافر من أن يكون كافراً، إذ كل ما عبده من المخلوقات هو الله، فلم يكن عندهم شركاً بل موحداً، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، فإذا فهمنا هذا فلا يجوز تقدير الخبر موجود إلا أن ينعت اسم "لا" بحق فلا بأس ويكون التقدير "لا إله حقاً موجوداً إلا الله" فيقيد الاستحقاق ينتفي المحذور الذي ذكرنا ا.هـ =

فمعنى النفي منه: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنةً ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: هو إفراده جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرع أن يُعبد به [1]، وجُلُّ القرآن في هذا النَّوع ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي**

= انظر "شرح الطحاوية" لابن أبي العز (١/ ٧٣-٧٥٤) "الدرر السنية"(٢/ جزء ٢/ ٥٣-٥٤) ط: دار العربية –لبنان "تيسير العزيز الحميد"(ص:٧٣) "فتح المجيد"(ص:٣٥-٣٨) "التمهيد لشرح كتاب التوحيد" للشيخ صالح (ص:٨٠-٨٣) "مجموع فتاوى ومقالات ابن باز"(٢/ ٥-٧) (٤/ ٥-٦) "عقيدة التوحيد" للفوزان (ص:٥٠-٥١) "حاشية الأصول الثلاثة" لابن قاسم (ص:٤٨-٥١) "شرح الأصول الثلاثة" للعثيمين (ص:٧١).

(١) هذان الأصلان هما ركنان لهذه الكلمة العظيمة؛ كلمة التوحيد. قال تعالى ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)**﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال تعالى ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)**﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

وعن طارق بن أشيم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول «**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» رواه مسلم برقم (٢٣).

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في "تفسير كلمة التوحيد": ...فاعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات، نفي الإلهية عما سوى الله سبحانه وتعالى من المرسلين حتى محمد ﷺ، ومن الملائكة حتى من جبريل، فضلاً عن غيرهما من الأنبياء والصالحين، وإثباتها لله عز وجل ا.هـ =

كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النَّحل:٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

= وقال الإمام ابن باز رحمه الله كما في "مجموع فتاوى ومقالات"(١/ ٨٦): ...وهي نفي وإثبات "لا إله" نافياً جميع العبادة لغير الله "إلا الله" مثبتاً جميع العبادة لله وحده لا شريك له ا.هـ

وقال العلامة صالح الفوزان –حفظه الله– في "عقيدة التوحيد"(ص:٥١-٥٢): ...فالركن الأول: النفي، لا إله: يبطل الشرك بجميع أنواعه، ويوجب الكفر بكل ما يعبد من دون الله.

والركن الثاني: الإثبات، إلا الله: يثبت أنه لا يستحق العبادة إلا الله، ويوجب العمل بذلك.

وقد جاء معنى هذين الركنين في كثير من الآيات، مثل قوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ﴾.

فقوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ هو معنى الركن الأول "لا إله" وقوله ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ هو معنى الركن الثاني "إلا الله".

وكذلك قوله عن إبراهيم –عليه السلام– ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، فقوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ ﴾ هو معنى النفي في الركن الأول. وقوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ هو معنى الإثبات في الركن الثاني ا.هـ

وانظر "تيسير العزيز الحميد"(ص:٧٧) "فتح المجيد"(ص:٣٦) "القول المفيد"(١/ ١٥٨) "مجموع فتاوى ومقالات ابن باز"(٢/ ٥-٧) (٤/ ٦) "حاشية الأصول الثلاثة" لابن قاسم (ص:٥١-٥٢) "شرح الأصول الثلاثة" للعثيمين (ص:٧١).

[الأنبياء:٢٥]، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٥]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء:١٠٨]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ جِدًّاً.

النوع الثالث: هو توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته.

وهذا النَّوع من التوحيد ينبني على أصلين، كما بيَّنه جلَّ وعلا:

الأول: تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث [(١)].

والثاني: هو الإيمان بكلِّ ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ حقيقةً لا مجازاً على الوجه اللائق بكماله وجلاله، ومعلومٌ أنَّه لا يصفُ اللهَ أعلم بالله من الله، ولا يصف الله –بعد الله– أعلم بالله من رسول الله [(٢)].

---

(١) المقصود بالحوادث: المخلوقات.

(٢) فنقول: تعريف هذا النوع: هو إثبات ما أثبه الله ورسوله ﷺ من غير تكييف، ولا تحريفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تعطيل. ونفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عن رسوله ﷺ، ونفي كلّ صفة نقصٍ في حقِّه تعالى، مع إثبات كمال الضدِّ.

ومن هنا نعلم أنَّ الأسماء والصفات توقيفية لا يجوز لأحدٍ أن يقول شيئاً عن الله أسماء وصفات إلا بما ثبت في القرآن والسنة.

=

والله عزَّ وجلَّ يقول عن نفسِهِ ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

ويقول عن رسوله ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣-٤].

= قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى"(٣/ ٣): فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد عُلِم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها: إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه، ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته ا.هـ

وقال رحمه الله في "منهاج السنة النبوية"(٢/ ١١١): مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، يثبتون لله ما أثبته من الصفات، وينفون عن مماثلة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضروب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل، وعن التشبيه والتمثيل، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، (ليس كمثله شيء) ردٌ على الممثلة (وهو السميع البصير) ردٌ على المعطلة ا.هـ

انظر "اجتماع الجيوش الإسلامية"(ص:٨٣) "الرَّد على الجهمية"(ص:١٨) للدارمي، "الرد على من أنكر الحرف" للسجزي (ص:٢١) "التوحيد" لابن منده (٢/ ١٣٥) "مجموع الفتاوى"(٣/ ٣) (٦/ ٥١٥) (٥/ ٢٥٧) (١١/ ٤٧٩) (١٢/ ٥٧٥) (١٣/ ٣٠٥) (١٦/ ٤٧٢) "القواعد المثلى" للعثيمين (ص:٧٥-٧٧و١٥٣-١٥٧).

فقد بيَّن تعالى نفيَ المماثلة عنه بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وبيَّن إثبات الصفات له على الحقيقة بقوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، فأوّل الآية يقضي بعدم التعطيل، فيتّضح من الآية أنَّ الواجب إثبات الصفات حقيقةً من غير تمثيلٍ، ونفي المماثلة من غير تعطيل[١]، وبيَّنَ عجز الخلق عن الإحاطةِ

(١) نقول: إثباتٌ بلا تمثيلٍ. وتنزيهٌ بلا تعطيل. فإذا أثبتنا فإنَّنا لا نمثِّل، ولا يلزم التمثيل. وإذا نزَّهنا فإنَّنا لا نُعطِّل، ولا يلزم التعطيل.
ومن مثَّل الله بخلقه فقد وقع في منكرٍ من القول وزوراً، باتفاق العلماء، نقل الاتفاق على ذلك ابن أبي العز رحمه الله في "شرح الطحاوية"(١/ ٥٧) وغيره. وانظر "منهاج السنة" لشيخ الإسلام (٢/ ١١٠-١١٨).
وهذا الفعل منه كفرٌ وضلالٌ، فقد روى اللآلكائي رحمه الله في "شرح أصول الاعتقاد"(٣/ ٥٣٢) برقم (٩٣٧) عن إسحاق بن راهويه رحمه الله قال: من وصف الله فشبَّه صفاته بصفات أحدٍ من خلقه فهو كافرٌ بالله العظيم؛ لأنه وصف لصفاته، إنما هو استسلام لأمر الله، ولما سنَّ الرسول ﷺ ا.هـ وإسناده صحيح.
وروى أيضاً (٣/ ٥٣٢) برقم (٩٣٦) عن نُعيم بن حمَّاد الخزاعي رحمه الله قال: من شبَّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه ا.هـ وإسناده صحيح.
قال الإمام الذهبي رحمه الله عقِبَ هذا الكلام: وما أحسن قول نعيم بن حماد بالذي سمعناه بأصحِّ إسناد ا.هـ من "السير"(١٣/ ٢٩٩).
وقال العلامة العثيمين رحمه الله في "شرح الواسطية"(١/ ٩٢): فمن مثَّل الله بخلقه؛ فقد كذب، وعصى الأمر، ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثَّل الله =

= بخلقه؛ فقال نعيم بن حمَّاد الخزاعي شيخ البخاري ﷫ (من شبَّه الله بخلقه؛ فقد كفَرَ)؛ لأنه جمع بين التكذيب بالخبر، وعصيان الطلب ا.هـ

وقال ﷫ في "تقريب التدمرية"(ص:٥٩): وتمثيل الخالق بالمخلوق كفر وضلال؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. ولا يمكن أن يكون ظاهر النصوص الكفر والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وانظر "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للآلكائي (٣/ ٥٢٨-٥٣٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام ﷫ أن التمثيل نزعة يهودية. انظر "مجموع الفتاوى"(١٠/ ٥٥).

والتعطيل؛ هو: الإخلاء والتَّرك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج:٤٥].

وهو على قسمين:

الأول: تعطيلٌ كليٌّ؛ كنفي ذاتِ الله، أو أسمائه وصفاته، كما عليه القرامطة والفلاسفة والجهمية، وأمثالهم.

الثاني: وهو ما تعلَّق بنوعٍ منه، كنفي الصفات دون الأسماء، ونفي بعض الصفات دون البعض، كما هو حال المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والكلابية، وأمثالهم.

ثمّ ليُعلم أنَّ التمثيل والتَّعطيل سببه التكييف، فهو إمَّا أن يعطِّل زاعماً التنزيه وذلِكَ بعد وقوعه في التمثيل، فهو لم يعطِّل إلا بعد أن مثَّل فهرب منه إلى التعطيل، ووقع في طرف النّقيض. وإمَّا أن يُمثِّل.

ولهذا؛ فإنَّ التكييف محرَّمٌ لا يجوز، وهو من التَّخرص، ومن العلوم التي لا يجوز البحث عنها، زِد على ذلِكَ يعتبر من التكلُّف، ومن القول على الله بغير علمٍ، نسأل الله العافية. =

= وقد نهى السَّلف عن ذلِكَ، أخرج الإمام البيهقي في "الأسماء والصفات" برقم (٨٦٦،٨٦٧) وأبو نُعيم في "الحلية"(٦/ ٣٢٥-٣٢٦) واللاّلكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" برقم (٦٦٤) من طُرُقٍ؛ أن رجلاً دخل على الإمام مالك رحمه الله، فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به فأُخرج. وهو أثر صحيح.

وأخرج اللالّكائي -أيضاً- برقم (٦٦٥) والبيهقي برقم (٨٦٨) عن ربيعة شيخ الإمام مالك رحمه الله أنه سُئل عن قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وهو أثر صحيح.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه "العلو"(ص:١٠٣-١٠٤): وساق البيهقي بإسناد صحيح عن الربيع الرشديني، عن ابن وهب، قال: كنت عند مالك فدخل رجلٌ فقال:...فذكره.

وروى يحيى التميمي وجعفر وطائفة قالوا: جاء رجلٌ إلى مالك ...فذكره، ثم قال: هذا ثابت إلى مالك، وتقدّم نحوه عن ربيعة شيخ مالك ا.هـ

وجاء عن أمّ سلمة رضي الله عنها في ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان به، والجحود به كفر. أخرجه اللالّكائي (٦٦٣) وفيه: محمد بن أشرس: قال الذهبي: متهمٌ في الحديث، تركه الأخرم الحافظ وغيره ا.هـ من "الميزان"(٣/ ٤٨٥). =

به جلَّ وعلا، فقال ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه:١١٠].

❋ ❋ ❋ ❋

= قال الذهبي: هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي ومالك الإمام وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح؛ لأن أبا كنانه ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه ا.هـ

وللسلف كلامٌ كثيرٌ في النهي عن التكييف، وقد ذكرنا بعضها في أكثر من شرح لنا على بعض متون العقيدة. ولله الحمد.

❋ **تنبيهٌ**: قال العلامة الهراس رحمه الله في "شرح الواسطية"(ص:٤٤): وليس المراد من قوله (من غير تكييف) أنهم ينفون التكييف مطلقاً؛ فإن كلَّ شيء لا بد أن يكون على كيفيةٍ ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف؛ إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه ا.هـ

(المَسْأَلَةُ الثَّانِيةُ: الوَعْظُ)

٢ - وأمَّا **المسألة الثانية**: التي هي: الوعظ [(١)]:

فقد أجمع العلماء على أنَّ الله تعالى لم ينزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبرَ ولا زاجراً أعظمَ من موعظة المراقبة والعلم، وهي: أن يُلاحظَ الإنسانُ أنَّ ربَّه جلَّ وعلا رقيبٌ عليه، عالمٌ بكلِّ ما يخفي وما يُعلن.

وضرب العلماء لهذا الوعظِ الأكبر والزَّاجر الأعظم مثلاً يصير به المعقول كالمحسوس، قالوا: لو فرضنا ملكاً سفَّاكاً للدِّماء، قتَّالاً للرجال، شديد البطش

(١) الوَعظُ: الوَعْظ والعِظَة والموعِظَة: النَّصح والتذكير بالعواقب. قال ابن سِيده: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثوابٍ وعِقابٍ. وقال الخليل: هو التذكير بالخير. وقال الفيروز آبادي: هو زجرٌ مقترنٌ بتخويف. قال تعالى ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ**﴾ [سبأ:٤٦]. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال « ... **وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**». أخرجه أحمد في "المسند" برقم (١٧٦٣٤)، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

انظر "النهاية" لابن الأثير (٥/ ٢٠٦) (مادة: وَعَظَ) "لسان العرب" (١٥/ ٣٤٥) (مادة: وَعَظَ) "بصائر ذوي التمييز" للفيروز (٥/ ٢٤٠).

فمن اتَّعظ بموعظة المراقبة لله تعالى، انتهى عن كلِّ حرام، وأتى بكلِّ واجبٍ، وهذا من كمالِ الدِّين، وشمولِهِ.

والنّكال [١] وسيَّافه قائمٌ على رأسه، والنِّطع مبسوطٌ [٢]، والسَّيف يقطر دماً، وحول ذلكَ الملك بناته وأزواجه، أيخطر في البال أن يهمَّ أحدٌ من الحاضرين بريبةٍ أو نيل حرامٍ من بناتِ ذلِكَ المَلِك وأزواجه وهو عالمٌ به ناظرٌ إليه؟! لا، وكلا، -ولله المثل الأعلى- بل كلّ الحاضرين يكونون خائفين خاضعةً قلوبهم، خاشعةً عيونهم، ساكنةً جوارحهم، غايةُ أمانيهم السَّلامة، ولا شك -ولله المثل الأعلى- أنَّ الله جلَّ وعلا أعظم اطِّلاعاً، وأوسعُ عِلماً من ذلِكَ المَلِك، ولا شك أنَّه أعظمُ نكالاً، وأشدُّ بطشاً، وأفظع عذاباً [٣]، وحِماه في أرضه محارِمُهُ، ولو علم

---

(١) النَّكال: هو المنعُ والتَّنْحِيَة عمَّا يُريدُ. يُقال: رَجُلٌ نَكَالٌ ونِكْلٌ، كَشَبَهٍ وشِبْهٍ؛ أي: يُنكَّلُ بهِ أعداؤه.
انظر "النهاية" (٥/ ١١٦) (مادة: نَكَلَ) "لسان العرب" (١٤/ ٢٨٧-٢٨٩) (مادة: نَكَلَ).

(٢) النِّطْعُ؛ أربع لغات: بكسر النون مع التشديد، وبفتحها، مع تسكين الطاء وفتحها، شيءٌ من الأَدَمِ معروفٌ. قال التميمي:

يَضْـــرِبْنَ بالأزِمَّـــةِ الخُـــدودَ　　ضَرْبَ الرِّياحِ النِّطَعَ المَمْـدُودَا

وهو ما ظَهَرَ من غار الفمِ الأعلى. ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ تعمُّقٍ قولاً وفعلاً.
انظر "النهاية" (٥/ ٧٤) (مادة: نَطَعَ) "لسان العرب" (١٤/ ١٨٦) (مادة: نَطَعَ).

(٣) فَظُعَ الأمرُ -بالضم- يَفظُعُ فَظاعةً، فهو فَظِيعٌ وَفَظِعٌ، وأَفْظَعَ الأمرُ: اشتدَّ وشنُعَ وجاوز المقدار وبرَّحَ فهو مُفظِعٌ. والمُفظِعُ: الشديد الشنيع.
انظر "لسان العرب" (١٠/ ٢٩١) (مادة: فَظَعَ).

أهلُ بلدٍ أن أمير البلد يصبح عالماً بكلِّ ما فعلوه بالليل لباتوا خائفين، وتركوا جميعَ المناكر خوفاً منه. وقد بيَّن تعالى أنَّ الحكمة التي خلَقَ الخلق من أجلها هي أن يبتليهم؛ أي: يختبرهم ﴿**أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ⁽٧⁾﴾ [الكهف:٧]، قال في أول سورة هود ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [هود:٧]، ولم يقل (أيكم أكثر عملاً).

وقال في الملك ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ** ⁽٢⁾﴾ [الملك:٢].

وهاتان الآيتان تبينان المراد من قوله ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ⁽٥٦⁾﴾ [الذاريات:٥٦]، ولمَّا كانت الحكمة في خلق الخلائق الاختبار المذكور، أراد جبريل أن يُبيِّن للناس طريقَ النَّجاح في ذلك الاختبار، فقال للنبي ﷺ أخبرني عن الإحسان؟ -أي: وهو الذي خُلِق الخلق لأجل الاختبار فيه- فبيَّن ﷺ أنَّ طريق الإحسان هي هذا الزَّاجر الأكبر، والواعظ الأعظم المذكور، فقال «**هُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]؛ ولهذا لا تُقلِّب ورقةً من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان) (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى) برقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

=

المصحف الكريم إلا وجدتَّ فيها هذا الواعظ الأعظم. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ ... ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨،١٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف:٧].

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود:٥].

= وأخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان) (باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة) برقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان) (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى) برقم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونحو هذا في كلِّ موضعٍ من القرآن [١].

* * * *

(١) فخلصنا من هذه المسألة أنَّ الواعظ الأعظم والزَّاجر الأكبر هو المراقبة لله تعالى، في السرِّ والعَلَنِ، والظاهرِ والباطن، والشِّدَّةِ والرَّخاء، وفي السَّفر والحضر، فإذا حصَلَ هذا الزَّاجر حصل كلُّ خيرٍ، وزال كلُّ شرٍّ، وحصل الإحسان الذي هو أعلى مراتب الدِّين. مما يدلُّ على كمال هذا الدِّين وشموله.

والمراقبة: هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة، وهي ثمرةُ علمِهِ بأنَّ الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله. وهو مطَّلِعٌ على عمله كلّ وقتٍ وكلّ لحظةٍ، وكلّ نَفَسٍ وكلّ طرفةِ عينٍ. قال تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٢]، وقال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:١٤].

وانظر "مدارج السالكين" لابن القيم (٢/ ٤٩ وما بعد).

(المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْقُ بَينَ العَمَلِ الصَّالِحِ وَغَيرِه)

٣ - وأمَّا **المسألة الثالثة**: التي هي: الفرق بين العمل الصالح وغيره:

فقد بيَّن القرآن العظيم أنَّ العمل الصالح: هو ما استكمل ثلاثة أمورٍ، ومتى اختلَّ واحدٌ منها فلا نفع فيه لصاحبه يوم القيامة [(١)]:

الأول: أن يكون مطابقاً لِمَا جاءَ به النبيُّ ﷺ [(١)]؛ لأنَّ الله يقول: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟**﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿**مَّن يُطِعِ**

---

(١) هذه الأمور الثلاثة يُقال لها: شروط قبول العمل، وقد ذكرها العلماء في كتبهم، والمشهور أنَّهما شرطان؛ الإخلاص والمتابعة، وذلك بعد الإسلام والعقيدة الصحيحة. فإذا رأيت بعضهم يقول لقبول العبادة أو العمل شرطان فاعلم أنَّه أراد بعد شرطِ الإسلام، وإذا رأيت البعض الآخر يقول: ثلاثة شروط يعني بدون الإسلام، فيأتي بالإسلام والإخلاص والمتابعة.

راجع لهذه الشروط الكتب التالية:

"العبودية" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:١٧) "مجموع الفتاوى"(١/ ٨٠ و٣٣٣-٣٣٥) و(١٠/ ١٧٢-١٧٣) "مدارج السالكين"(٢/ ٦٤) "تجريد التوحيد المفيد" للمقريزي (ص:٦٠وما بعد) "تطهير الاعتقاد" للصنعاني مع شرحه "التعليقات الجياد" للعلامة زيد المدخلي (ص:٧٩-٨٥) "الدرر السنية"(٣/ ٦٥) (٩/ ٨٩) (٢٠/ ٤١٧) "معارج القبول" لحافظ حكمي (٢/ ٤٣٩-٤٤٢) "إعلام السنة المنشورة" لحافظ حكمي (ص:٣١-٣٢) "بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار" للسعدي (ص:١٠) "أضواء البيان" للشنقيطي (ص:٤٩٧) "منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل" للعثيمين (ص:١٧-٢٧) "عقيدة التوحيد" للفوزان (ص:٥٨-٥٩).

﴿ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس:٥٩].

الثاني: أن يكون خالصاً لوجهه تعالى [٢]؛ لأنَّه يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥]، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

(١) هذا شرطُ المتابعة، أي: متابعة رسول الله ﷺ، ومتابعته باتِّباع شرعه، القرآن والسنَّة. وضدّه الابتداع، فمن عَبَدَ اللهَ سبحانه وتعالى على غير ما شَرَعَ فإنَّه قد ابتدعَ شيئاً لم يكن في شرع الله، وبالتَّالي فإنَّه لا يُقبل؛ لأنَّه ضلالة، وقد قال النبيُّ ﷺ «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»، أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٧) ومسلم برقم (١٧١٨)، عن عائشة رضي الله عنها، وفي روايةٍ لمسلم «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

وفي صحيح مسلم برقم (٨٦٧)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله قال «**إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَي مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**».

والكلام على البِدَعِ وخطرها قد توسَّعنا فيه في غير ما رسالةٍ، ولله الحمد.

(٢) يُنافي هذا الشَّرط، الشرك بالله تعالى، فإنَّه يبطل ذلك العمل بعينه الذي خالطه الشرك بأكمله سواء كان شركاً أكبر أو أصغر، أمَّا عموم الأعمال كلّها فإنَّها لا يُحبطها إلا الشِّرك الأكبر على الرَّاجح.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١١-١٤].

الثالث: أن يكون مبنيًّا على أساس العقيدةِ الصَّحِيحةِ؛ لأنَّ العمل كالسَّقف، والعقيدة كالأساس: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه:١١٢]، فقيَّد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقال في غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٦] ... إلى غير ذلك من الآيات.

* * * *

(المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْكِيمُ غَيرِ الشَّرْعِ الكَرِيمِ)

٤ - وأمّا **المسألة الرَّابعة**: التي هي: تحكيم غير الشرع الكريم:

فقد بيَّن القرآن أنَّها كفرٌ بواحٌ وشركٌ بالله تعالى، ولمَّا أوحى الشيطانُ إلى كفَّار مكة أن يسألوا نبيَّنا عن الشاة تُصبحُ ميتة: من قتَلَها؟ فقال: «**اللهُ قَتَلَهَا**». فأوحى إليهم أن يقولوا له: ما ذبحتموه بأيديكم حلالٌ، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام؟! فأنتم إذن أحسن من الله!!! أنزل اللهُ: ﴿**وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١**﴾ [الأنعام:١٢١] [(١)]. وعدم دخول الفاء على جملة ﴿**إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١**﴾ قرينةٌ ظاهرةٌ على تقدير

(١) الحديث أخرجه أبو داود في "سننه" (كتاب الضحايا) (بابٌ في ذبائح أهل الكتاب) برقم (٢٨١٨)، فقال: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿**وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ**﴾ يقولون: ما ذبح اللهُ فلا تأكلوا، وما ذبحتم أنتم فكلوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿**وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ**﴾ .

وأخرجه ابن ماجه في "سننه" (كتاب الذبائح) (باب التسمية عند الذبح) برقم (٣١٧٣)، وابن جرير الطبري في "تفسيره" (٩/ ٥٢٢و٥٢٣و٥٢٥).

وإسناده ظاهره الحُسْن إلا أنَّه معلٌّ بروايةِ سماك عن عكرمة؛ فإنَّا مضطربة. كما نصَّ على ذلك بعضُ أهل العلم منهم: علي بن المديني ويعقوب بن شيبة. "تهذيب الكمال".

=

ومما يدلُّ على اضطرابها أنَّه قد روى الحديث عن عكرمة مرسلاً، عند ابن جرير الطبري (٩/ ٥٢١)، كما سيأتي إن شاء الله. ولهذا ضعَّفه الإمام الوادعي ﵀ في "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص:١٠٧) ط: دار ابن حزم.

طريق ثانية:

وأخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (٩/ ٥٢٣-٥٢٤) فقال: حدثني المثنى، قال حدَّثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﵄ قوله: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ قال: قالوا: يا محمد، أمَّا ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه، وأمَّا ما قتَل ربكم فتُحرِّمونه! فأنزل الله ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾**﴾. وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه؛ إنكم إذن لمشركون. وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٨٠) برقم (٧٨٤٨). وإسناده ضعيف.

فإنَّ فيه علتين:

الأولى: عبد الله بن صالح، كاتب الليث؛ وهو ضعيفٌ.

الثانية: الانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ﵄؛ فإنَّه لم يسمع منه، وإن كان قد ذكر بعضُ أهل العلم الواسطة الذين روى عنهم.

طريق ثالثة:

وأخرجه أبو داود في "سننه" (كتاب الضحايا) (بابٌ في ذبائح أهل الكتاب) برقم (٢٨١٩) فقال: حدثنا عثمان ابن أبي شيبة، حدثنا عمران بن عُيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﵄ قال: جاءت اليهود إلى النبيِّ فقالوا: نأكل ممَّا قتَلنا، ولا مما قتلَ الله فأنزل الله: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ**

= ﴿يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية. وأخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (٩/ ٥٢٦)، وغيرهما.

وهذا الحديث في سنده: عمران بن عيينة، وهو صدوق له أوهامٌ، كما في "التقريب"(٥١٦٤)، وقد وهِمَ في هذا الحديث كما سيأتي.

وفيه: عطاء بن السائب وهو صدوقٌ وقد اختلط، كما في "تهذيب الكمال" رقم الترجمة (٣٩٣٤)، روى عنه عمران بعد الاختلاط.

وقد وهِمَ عمران بجعله السائل من اليهود، وهو خطأٌ لثلاثة أمورٍ:

الأمر الأول: أنَّ اليهود لا يرون إباحة الميتة حتَّى يجادلوا.

الأمر الثاني: أنَّ الآية من سورة الأنعام وهي مكيَّة. ومعلومٌ أنَّ الجدال كان من شأن المشركين في هذا العهد، أمَّا في العهد المدني فكان من شأن اليهود.

الأمر الثالث: أنَّ عمران بن عيينة قد خُولِف في هذا الحديث، خالفه زياد بن عبد الله البكائي، وذلك عند الإمام الترمذي كما سيأتي. انظر "فتاوى إمام المفتين" لابن القيم (ص:١٨٥) و"تفسير ابن كثير" (٢/ ٢٣١).

أخرج الإمام الترمذي في سننه (كتاب التفسير) برقم (٣٠٦٩) فقال: حدثنا محمد بن موسى البصري الحرشيّ، قال: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: أتى أُناسٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله! أنأكل ما نقتلُ ولا نأكل ما يقتلُ اللهُ؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إلى قوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عبَّاس أيضاً، ورواه بعضهم عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً. =

=

وفيه علَّتان: الأولى: زياد بن عبد الله البكائي، في حديثه عن غير أبي إسحاق لينٌ. كما قال الحافظ ابن حجر "التقريب" (٢٠٨٥). فهو ضعيفٌ في روايته عن غير أبي إسحاق، وهذه منها.

الثانية: عطاء بن السائب، وقد اختلط، روى عنه زياد بعد الاختلاط. هذا ما وَصَل إليه جهدي القاصر في جمع الأحاديث التي فيها التصريح في سبب نزول هذه الآية، وظهر لي أنَّها لا تقوى للتحسين، ولا سيما وقد أشار الترمذي إلى أنَّ الحديث قد جاء عن سعيد بن جبير مرسلاً. هذا شيءٌ.

الشيء الآخر: قد جاء مرسلاً عن غير سعيد أيضاً؛ جاء مرسلاً عن عكرمة. أخرجه ابن جرير (٩/ ٥٢١و٥٢٣). وفيه اللفظ الذي ذكره الإمام الشنقيطي.

وجاء مرسلاً عن الضحاك. أخرجه ابن جرير (٩/ ٥٢٤ و٥٢٦).

وجاء مرسلاً عن قتادة. أخرجه ابن جرير (٩/ ٥٢٥).

شيءٌ ثالثٌ، وهو أنَّه قد ثبتَ عن عبد الله بن عباس بهذا المعنى، لكن ليس فيه التصريح بسبب النزول، وعليه فإنَّه يكون من قوله.

أخرج الإمام النسائي في "سننه" (كتاب الضحايا) برقم (٤٤٣٧) فقال: أخبرنا عمرو بن علي، قال: حدثنا يحيى، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثني هارون بن أبي وكيع، -وهو هارون بن عنترة-، عن أبيه، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبحَ الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه. وإسناده حسنٌ. وأخرجه ابن جرير (٩/ ٥٢٣).

وله طريقان آخران:

الأولى: عند ابن جرير (٩/ ٥٢٦) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧٩)-١٣٨٠) برقم (٧٨٤٣،٧٨٤٦)، عن جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، بنحوه.

=

لام توطئة القسم، فهو قَسَمٌ من اللهِ أقسمَ به جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة على أنَّ من أطاع الشيطان في تشريعه تحليل الميتة أنه مشركٌ، وهو شركٌ أكبرٌ مخرجٌ عن الملَّة الإسلامية بإجماع المسلمين، وسيوبّخ الله يومَ القيامة مرتكبَه

= وفيه: عطاء بن السائب روى عنه جرير بعد الاختلاط، كما نصَّ أهل العلم على ذلك.

الثانية: عند ابن جرير (٩/ ٥٢٢)، عن محمد بن سعد، عن أبيه، عن عمِّه، عن أبيه، عن ابن عبَّاس، بنحوه.

* سببٌ آخر لنزول الآية، لم يثبت: أخرج الطبراني في "المعجم الكبير" برقم (١١٦١٤)، فقال: حدثنا علي بن المبارك الصنعاني، ثنا زيد بن المبارك، ثنا موسى بن عبد العزيز، ثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسَلَتْ فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً، وقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلالٌ، وما ذبح الله بشمشير من ذهب فهو حرام، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال : الشياطين من فارس فأولياؤهم من قريش.

وفيه: موسى بن عبد العزيز القنباري، وهو صدوق سيء الحفظ. كما قال الحافظ في "التقريب" (٦٩٨٨).

والحكم بن أبان، صدوقٌ عابد، له أوهام. "التقريب" (١٤٣٨).

وجاء مرسلاً عن عكرمة. أخرجه ابن جرير (٩/ ٥٢٠-٥٢١). والله أعلم.

بقوله: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦١].

وقال تعالى عن خليله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ [مريم:٤٤] أي: باتِّباعه في تشريع الكفر والمعاصي.

وقال: ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ ﴾ [النساء:١١٧]، أي: ما يعبدون إلا شيطاناً وذلك باتِّباعهم تشريعه.

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ ﴾ [الأنعام:١٣٧]. فسمَّاهم شركاء لطاعتهم لهم في معصية الله بقتل الأولاد.

ولمَّا سأَلَ عَدِيُّ بنُ حاتمٍ رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾ [التوبة:٣١]، أجابه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّ معنى اتِّخاذهم أرباباً: هو اتِّباعهم لهم في تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّمه [(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" (كتاب تفسير القرآن) (باب ومن سورة التوبة) برقم (٣٠٩٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (عند الآية ٣١ من سورة التوبة) (٦/ ١٧٨٤)، وابن جرير الطبري في "تفسيره" عند الآية ٣١ من سورة التوبة (١١/ ٤١٧-٤١٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (كتاب آداب القاضي) (باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أن يقلِّد أحداً من أهل =

=

دهره ...) (١٠/ ١١٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٣٧٧٣-٣٧٧٤) برقم (٢١٨) و(٢١٩)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" برقم (٧٤٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤١٥) إلى ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، أبي الشيخ، وابن مردويه، من طُرُقٍ، عن غُطَيف بن أَعْيَن، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وفي عُنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «**اطْرَحْ هَذَا الوَثَنَ**». وسمعته يقرأ: «﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا** ﴾». قال: «**أَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيئَاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيهِمْ شَيئَاً حَرَّمُوهُ**». وإسناده ضعيفٌ، فإنَّ فيه: غُطيف بن أعين الشيباني الجزريَّ، وقيل: غضيف بن أعين؛ وهو ضعيف. "تقريب التهذيب" برقم (٥٣٦٤).

وأخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (١١/ ٤١٨-٤١٩)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٠/ ١١٦)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" برقم (٧٤٨) و(٧٤٩)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٤١٥) إلى عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وأبي الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البختري سعيد بن فيروز الطائي، عن حذيفة رضي الله عنه، موقوفاً عليه.

وفيه علَّتان:

الأولى: عنعنة حبيب بن أبي ثابت؛ فإنَّه مدلِّس، ولم يصرِّح بالتحديث هنا. "طبقات المدلّسين" برقم (٦٩).

لكنَّه متابعٌ؛ تابعه عطاء بن السائب عند ابن جرير في "تفسيره" (١١/ ٤٢٠-٤٢١)، وهو صدوقٌ، واختلط بآخرةٍ، إلا أنَّ الراوي عنه سفيان الثوري، وقد روى عنه قبل الاختلاط كما نصَّ على ذلك يحيى بن سعيد القطَّان. "المختلطين" للعلائي رقم (٣٣). فانتفت هذه العلَّة. وبقيت العلَّة الثانية، وهي:

=

وهذا أمرٌ لا نِزَاعَ فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء:٦٠]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)﴾ [الأنعام:١١٤]، وقوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ

= الثانية: الانقطاع بين أبي البختري سعيد بن فيروز وحذيفة بن اليمان؛ فإنَّه لم يدركه. "جامع التحصيل" برقم (٢٤٢).

وعليه فقول الدكتور حكمت ياسين في كتابه "التفسير الصحيح موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور"(٢/ ٤٤٣): إنَّه صحيح الإسناد؛ قولٌ بعيد، ليس بصحيح.

وأخرجه ابن جرير في "تفسيره"(١١/ ٣٢٠)، عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما موقوفاً عليه، من قوله.

وفيه: أسباط بن نصر.

وطريق أخرى عند ابن جرير (١١/ ٤٢٠)، مسلسلة بالعوفيين، وكلُّهم ضُعفاءُ.

فلا يصحّ الحديث؛ لأنَّه ليس له ما يقوِّيه من الأحاديث المرفوعة. بل جاء موقوفاً، والموقوف الذي ليس له حكم الرفع لا يقوي المرفوع، زد على ذلك أنَّ الموقوف ضعيفٌ. اللهم إلا إذا كان من قبيل المرفوع كأن يكون في سبب النزول، إلا أنَّه هنا مذكور من جهة التفسير من قوله، لا من جهة سبب النزول، والله أعلم.

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٥]، فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في الأخبار، ﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في الأحكام، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠][1].

---

(١) لأهلِ العلم كلامٌ كثيرٌ في هذا الباب، وأذكر هنا الخلاصة في حكم من حَكَمَ بغير ما أنزل الله، ثمَّ أذكر المراجع لَمِنْ أراد الرجوع والاستفادةِ، فأقول:

الذين يحكم بغير ما أنزل الله على أقسام:

الأول: أن يحكم بغير ما أنزل الله جاحداً لحكم الله ورسوله. فهذا يكفر بالإجماع.

الثاني: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً جواز ذلِكَ. فهذا يكفر بالإجماع.

الثالث: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنَّه يساوي حكمَ الله. فهذا يكفر بالإجماع.

الرابع: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنَّه أحسن من حكم الله وأفضل. فهذا يكفر بالإجماع.

الخامس: أن يحكم بغير ما أنزل الله مبغضاً لحكم الله. فهذا يكفر بالإجماع.

السادس: أن يحكم بغير ما أنزل الله مستهيناً ومحتقراً لحكم الله. فهذا يكفر بالإجماع.

فهذه الحالات يكفر صاحبها باتِّفاق العلماء. فكفره وفسقه وظلمه أكبر. نسأل الله العافية.

السابع: أن يحكم بغير ما أنزل الله لا احتقاراً ولا بغضاً ولا معتقداً جواز ذلك، ولا تفضيلاً له على حكم الله، ولا شيء مما ذُكِر في الأقسام الأولى؛ بل ويعتقد أنَّه مخالفٌ لحكم الله، ومستحقٌّ للعقوبة، وإنَّما لهوىً في نفسه، أو لشهوةٍ، أو لبغضٍ =

* * * *

= للمحكوم عليه؛ فهذا لا يكفر باتِّفاق العلماء، بل يفسق، وكفره وفسقه وظلمه أصغر وليس بأكبر، وهو مرتكبٌ لكبيرةٍ من كبائر الذنوب. نسأل الله العافية.

* تنبيهٌ:

ويُنبَّه على أنَّه لو أبغض حكمَ الله، أو اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، أو اعتقد أنَّ حُكْمَ غير الله أفضل من حكم الله أو مساوٍ لحكم الله؛ **حتَّى ولو حكمَ بما أنزل الله فإنَّه يكفر**، لِمَا يعتقده من المعتقد الكفري –عياذاً بالله من ذلك.

انظر: "منهاج السنة النبوية" لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ١٣١) "مدارج السالكين" للإمام ابن القيم (١/ ٢٥٢-٢٥٣) "شرح العقيدة الطحاوية" للعلامة ابن أبي العز (٢/ ٤٤٦) "تحكيم القوانين" للعلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ. "مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم" (١٢/ ٢٥١- وما بعد) "أضواء البيان" للعلامة الشنقيطي (٢/ ١٠٢-١٠٨) "مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للإمام ابن باز" (١/ ٧٢-٨١و١٣٢) (٤/ ٤١٦) (٨/ ٥-٧) "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين" (٢/ ١٤٠-١٤٨) "القول المفيد شرح كتاب التوحيد" للعلامة العثيمين (٢/ ١٥٨-١٦٣) "إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد" للعلامة الفوزان (٢/ ١١٨-١٣٨) "التمهيد لشرح كتاب التوحيد" للعلامة صالح آل الشيخ (ص:٤٠٥-٤١٢) "شرح الأصول الثلاثة" للعلامة العثيمين (ص:١٥٤-١٥٩) "شرح الأصول الثلاثة" للعلامة الفوزان (ص:٣٠٤-٣٠٦) "شرح الأصول الثلاثة" للعلامة صالح آل الشيخ (ص:٢٣٥-٢٣٧) "الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد" للعلامة الفوزان (ص:١٠٨-١١٥و١١٨) "عقيدة التوحيد" للعلامة الفوزان (ص:١٤١-١٤٨) "شرح نواقض الإسلام" للشيخ عمر باز مول (ص:١٢٠-١٢٣) "المختصر المفيد في عقائد أئمة التوحيد" لمد حت آل فراج (ص:١٣٥-١٥٤).

(المَسْأَلَةُ الخَامِسَةُ: أَحْوَالُ الاجْتِمَاعِ)

٥ – وأمَّا **المسألة الخامسة**: التي هي: أحوال الاجتماع:

فقد شَفَى فيها القرآنُ الغليلَ، وأنارَ فيها السبيلَ، فانظر إلى ما يأمر الرئيسَ الكبير أن يفعله مع مجتمعه: ﴿ **وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾** ﴾ [الشعراء:٢١٥]، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وانظر إلى ما يأمر المجتمعَ العام أن يفعله مع رؤسائه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ** ﴾ [النساء:٥٩].

وانظر إلى ما يأمر الإنسانَ أن يفعله مع مجتمعه الخاص؛ كأولاده وزوجته: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾** ﴾ [التحريم:٦].

وانظر كيف ينبِّهه على الحذر والحزم من مجتمعه الخاص، ويأمره إن عثر على ما لا ينبغي أن يعفو ويصفح، فيأمره أولاً بالحزم والحذر، وثانياً بالعفو والصفح: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾** ﴾ [التغابن:١٤].

وانظر إلى ما يأمر أفراد المجتمع العام أن يتعاملوا به فيما بينهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] .. إلى غير ذلك.

ولَمَّا كان المجتمعُ لا يسلمُ فردٌ مِنْ أفراده –كائناً من كان– مِن مُناوِئٍ يُناوئه، ومُعادٍ يُعاديه، مِنْ مجتمعه الإنسي والجنِّي،

ليس يخلو المرءُ من ضدٍّ ولو حاول العُزلةَ في رأس الجبـل

وكان كلُّ فردٍ محتاجاً إلى علاج هذا الدَّاء الذي عمَّت به البلوى، أوضح تعالى علاجه في ثلاثة مواضع من كتابه: بيَّن فيها أنَّ علاج مناوأة الإنسي: هو

الإعراض عن إساءته، ومقابلتها بالإحسان، وأنَّ شيطان الجنِّ لا علاج لدائه إلا الاستعاذة بالله من شرِّه:

الموضع الأول: قوله تعالى في أُخريات الأعراف في الإنسي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

وفي نظيره من شياطين الجنِّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠].

الموضع الثاني: في سورة المؤمنين قال فيه في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون:٩٦].

وفي نظيره الآخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

الموضع الثالث: في فصلت، وقد زاد فيه تعالى التصريح بأنَّ ذلك العلاج السماوي يقطع ذلك الدَّاء الشيطاني، وزاد فيه أيضاً أنَّ ذلك السماوي لا يُعطي لكلِّ الناس، بل لا يُعطاه إلا صاحب النصيب الأوفر، والحظِّ الأكبر.

قال فيه في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

[فصلت:٣٤-٣٥].

وقال في نظيره الآخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٦].

وبيَّن في مواضع أخرى أنَّ ذلك الرِّفق واللين لخصوص المسلمين دون الكافرين، قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩].

الشدَّةُ في محلِّ الِّلين حُمْقٌ وخَرَقٌ، والِّلينُ في محل الشدة ضَعْفٌ وخَوَرٌ.

إذا قيل حِلمٌ قلْ فلِلحلم موضعٌ وحِلمُ الفتى في غير موضِعِه جهلُ

* * * *

(المَسْأَلَةُ السَادِسَةُ: مَسْأَلَةُ الاقْتِصَادِ)

٦ – وأما **المسألة السادسة**: التي هي: مسألة الاقتصاد:

فقد أوضح القرآن أصولها التي يَرجعُ إليها جميعُ الفروع، وذلك أنَّ مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين [(١)]:

الأول: حُسْنُ النظرِ في اكتساب المال.

الثاني: حُسْنُ النظرِ في صرفه في مصارفه.

فانظر كيف فتح الله في كتابه الطرقَ إلى اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدِّين، وأنار السبيلَ في ذلك، قال: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)** ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال: ﴿ **وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ** ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال: ﴿ **إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ** ﴾ [النساء:٢٩]، وقال: ﴿ **وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ** ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقال: ﴿ **فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا** ﴾ [الأنفال:٦٩] ... إلى غير ذلك.

---

(١) من أحسن مَنْ تكلَّم على هذا الموضوع هو الشيخ عبد الله المنيع –وفَّقه الله– في كتابه "بحوثٌ في الاقتصاد الإسلامي"، فليُرجع إليه.

وانظر كيف يأمر بالاقتصاد في الصرف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ الآية [البقرة:٢١٩]، وانظر كيف يَنهَى عن الصَّرف فيما لا يحل الصرف فيه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾ [الأنفال:٣٦].

* * * *

(المَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: السِّيَاسَةُ)

٧ – وأمَّا **المسألة السابعة**: التي هي: السِّياسة:

فقد بيَّن القرآن أصولَها، وأنار معالمَها، وأوضحَ طرقَها، وذلك أنَّ السياسة –التي هي مصدر ساس يسوس: إذا دبَّر الأمور وأدار الشؤون [1]–

---

(١) السِّياسة: مصدر ساس يسوس. والسَّوْسُ: الرِّياسةُ، يُقال: ساسوهم سوْساً. وإذا رأَّسوه قيل: سوَّسوه وأساسوه. وساس الأمر سياسةً: قام به. ورجلٌ ساسٌ من قومٍ ساسةٍ وسُوَّاسٌ.

والسِّياسة: هي القيام على الشؤون بما يُصلحه.

انظر "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (مادة: سَوَسَ) (٢/ ٤٢١) و"لسان العرب" لابن منظور (مادة: سَوَسَ) (٦/ ٤٢٩–٤٣٠).

* **تعليق مختصر عن السياسة**: السياسة الشرعية أصلٌ عظيمٌ من أصول الدِّين، والتي شملت الدِّين كلَّه، عقيدةً، وأحكاماً، ومعاملاتٍ داخلية وخارجية. وكلُّها مبيَّنة في القرآن والسنَّة، بما لا مزيد عليه، ولا حاجة إلى سياسة أحدٍ من الخلق.

أقول هذا ردَّاً على صنفين مؤدى قولهما إلى نفي السياسة الشرعية. وهذان الصنفان هما:

الأول: الذين يقولون بـ(فصل الدِّين عن الدَّولة).

الثاني: الذين يقولون بـ(أنَّه ليس في الإسلام نظامٌ سياسي).

وهؤلاء علمانيُّون أرادوا تهميش دين الإسلام، ليتسنَّى لهم نشر العلمانيَّة في أوساط المسلمين، وجعْل المسلمين يعيشون عيشةً يهودية نصرانيَّة، كعيشةِ البهائم، يتخبَّطون في ظلمات الجهل والغباء، والظلم والاعتداء، والدَّعارة والفحشاء، سالكين الطُّرُقَ العوجاء، بما يُفسد عليهم فطرهم، وعقولهم، =

= وعقائدهم، ودينهم، ودنياهم، وبها يفسد عليهم مصالحهم وحقوقهم الدينية والدنيوية.

في الحقيقة هذا الفعلُ منهم دعوةٌ إلى الردَّة عن دين الإسلام، والوقوع في أحضان الحضارة الغربية، والديانات الكفرية، نسأل الله العافية.

بل؛ لقد جاء الإسلام بجميع الأنظمة السياسية، وكان للإسلام علاقة قويَّة بالدَّولة، حيث أنَّ من تخلَّى عنه فقد فشلت دولته، ولم تنجح، بل خابت، وخسرت، وأُجلِبَ عليها الشرُّ من جميع أبوابه، وها هي كثيرٌ من الدُّولِ التي استغنت عن السياسة الشرعية الإسلامية انظروا إلى أين صار مآلُها؟! صار مآلها إلى الدَّمار الديني والدنيوي، وإن صلحت الدنيا لبعضها في بعض الجوانب، فلقد فقدَت البركة، ورضَتْ بالمعاصي على حِسابِ دينها.

فالسرقات والزنا واللواط والفجور والظلم والقتل والاعتداء وقطع الطريق والانتهاك للحرمات وشرب الخمور واستعمال الربا والرشوة والكذب والغدر والخيانة وغيرها كثيرٌ قد عشعشت فيها، وصارت في غايةٍ من الانهيار، وازداد عليها البلاء، وتكالبت عليها الفِتَنُ، لا أقول هذا في بلاد الكفَّار –فإنَّها كافرة قد صارت هذه حياتهم التي استدرجهم الله فيها ليعذبهم بها–، ولكن أقول هذا في بلاد المسلمين، لَمَّا قلَّ الاعتناء بالسياسة الشرعية، وحصل الاعتناء بالسياسة الغربية الفاجرة حصل لأكثر دول المسلمين ما حَصَلَ، وها هي تعاني الأزمات الشديدة في دينها واقتصادها ومعايشها، إنَّه الإهمال للسياسة الشرعية، فلو أنَّ المسلمين حكومةً وشعباً عملوا بشريعة الله على ما أراد الله جل وعلا، في جميع شؤونهم لَمَا حَصَلَ الذي حَصَلَ.

ومع ما تلقَّوه من الدروس ورأوا بأمِّ أعينهم الفشل بسبب البعد عن السياسة الشرعية، نجِدُ من الكثير عَدَمَ الاتعاظ، والرجوع إلى شرْعِ الله تعالى، فقد أتوا =

=

بجميع السياسات الغربية، وبجميع ما يظنون أنَّه يصلح لهم معايشهم مما يخالف السياسة الشرعية فما وجدوا إلا الويل والدَّبور. فلماذا لا يكتفون بشريعةِ الله؟
ولماذا لا يحكمونها في أوساطهم؟
ولماذا ولماذا ولماذا ... ؟
إنَّها لن تصلح الشعوب ولا الدُّول، ولن تستقيم المعايش ولا الأوضاع حتَّى يُعمل بالسياسة الإسلامية، ويرجع المسلمون إلى الله تعالى، ويمتثلوا الشريعة الإسلامية في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية، علِمَ ذلِكَ مَنْ عَلِمَ، وجَهِلَهُ من جَهِلَ.
ولمعرفة مجيئ الشريعة بالنظام السياسي العادل راجع كتاب "معجم المصطلحات العصرية وبيان أثرها على الشريعة الإسلامية" للأخ عبد الحميد الحجوري (ص:٤٨١-٥٠٤).

❋ السياسة على قسمين:

قال الإمام ابن القيم ﵀: إنَّ السياسة على نوعين: سياسة ظالمة؛ فالشريعةُ تحرِّمُها. وسياسة عادلةٌ تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، عَلِمَها مَنْ عَلِمَ وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَ ا.هـ "الطرُقُ الحُكمية في السياسة الشرعية"(١/ ٧-٨).
-فالسياسة الظالمة الفاشلة: هي التي تنبني على الكذب، والنِّفاق، والخِداع، والمكر، والكيد، والقتل، والغشّ، والخيانة، وإخلاف المواعيد، وتلوُّن الوجه، والمماطلة في الحقوق، والكلمات المعسولة التي تخالفها الأفعال، والكِبر، والعجب، والغرور، والتَّهميش للخير وأهله، والرُّكون إلى الظلم وأهله، وغير ذلك مما تنبني عليه السياسة الظالمة، لا سيما في هذه الأيام؛ فإنَّ السِّياسي منهم الحاذق الماهر هو من يستخدم هذه الأمور وغيرها، فهذه السياسة محرَّمةٌ شرعاً، وعقلاً، وفطرةً، وأصحابها ممقوتون، غير مرضيين.

=

=

-وأمَّا السياسة الشرعية الحقّ؛ فهي التي تنبني على الصدق، والإخلاص، والحِلم، والتواضع، وتنفيذ أحكام القرآن والسنة، والعدل، والإنصاف، ووفاء العهود، والمحافظة على الحقوق، ونصر المظلوم، ومنع الظالم، وتوفير الخدمات الدينية والدنيوية، وتفقُّد الضعفاء والمساكين والأيتام، والعناية ببيوت الله، وبالعلماء الصالحين، والاهتمام بشؤون الإدارات النَّافعة، وغير ذلك، مع مراقبة الله تعالى والإخلاص له، وتذكّر الوقوف بين يديه في ذلك اليوم العصيب الذي ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢﴾ [غافر:٥٢].

* كلامٌ مهمٌ في هذا الباب لا يُستغنى عنه:

قال الإمام ابن القيم ﷺ: قال ابن عقيل في "الفنون" جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية أنه هو الحزم، ولا يخلو من القول به إمام. فقال شافعيٌ: لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

فقال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحيٌ. فإن أردَّت بقولك إلا ما وافق الشرع؛ أي: لم يخالف ما نطق به الشرع؛ فصحيح. وإن أردَّت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع؛ فغلطٌ وتغليطٌ للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن ...

وهذا موضع مزلَّة أقدامٍ، ومضلة أفهامٍ، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب، فرَّط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرَّءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له، وعطَّلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعاً أنها حق مطابق للواقع، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع.

ولعمر الله إنها لم تناف ما جاء به الرسول ﷺ، وإن نافت ما فهموه من شريعته باجتهادهم، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، وتقصير في =

= معرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر، فلما رأى ولاة الأمور ذلك، وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة؛ أحدثوا من أوضاع سياساتهم شراً طويلاً، وفساداً عريضاً، فتفاقم الأمرُ، وتعذر استدراكه، وعزَّ على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك، واستنقاذها من تلك المهالك.

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة فسوَّغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله ﷺ، وكلا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله ﷺ، وأنزل به كتابه. فإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط -وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات-، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان فثَمَّ شرعُ الله ودينُه، والله سبحانه أعلم، وأحكم، وأعدل أن يخصَّ طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منها، وأقوى دلالة، وأبين أمارة، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأيُّ طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، وليست مخالفة له، فلا يقال إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل هي موافقة لما جاء به، بل هي جزءٌ من أجزائه، ونحن نسميها سياسة تبعاً لمصطلحهم؛ وإنما هي عدلُ الله ورسوله ﷺ ظهر بهذه الأمارات والعلامات ا.هـ باختصار يسير "الطُرُق الحُكمية"(١/ ٢٩-٣٢).

وانظر "فتاوى إمام المفتين ورسول ربّ العالمين" لابن القيم (ص:١٧٥-١٧٨).

وقال رحمه الله: وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن أنَّ شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس ، أو حقيقة ، أو معقول خارج عنها ؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول =

=

آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على مَنْ ظن ذلك وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به ، واستغنوا به عما سواه ، وفتحوا به القلوب والبلاد ، وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم ، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن ، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان .

وقد قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾**﴾ [العنكبوت:٥١]، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾**﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾**﴾ [يونس:٥٧]، وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي وهو ما تبينه السنة بعشر معشار الشريعة ؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ؟ أو عامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! .

ويا لله العجب ! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنيانها من القواعد وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع ؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك ؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم وأعلم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له وما يمتنع عليه منهم ؟ فوالله لأن يلقى الله عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك لخير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل ا.هـ "فتاوى إمام المفتين"(ص: ١٨٠-١٨١).

تنقسم إلى قسمين: خارجية وداخلية [(١)]:

* أمَّا الخارجية: فمدارُها على أصلين:

أحدهما: إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والثاني: الوحدة الصحيحة الشاملة حول تلك القوة، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

(١) أحسَنُ مَنْ تكلَّم على هذا الموضوع هو الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "الطُرُقُ الحُكميَّة في السياسة الشرعية"، وشيخه ابن تيمية رحمه الله في كتابه "السياسة الشرعية في إصلاح الرَّاعي والرَّعيَّة". وألَّف جمعٌ من الباحثين والدُّعاة إلى الله مستفيدين من هذين الكتابين كثيراً.

وفي الباب: كتاب "الأحكام السلطانية في الولايات الدِّينيَّة" للإمام الماوردي رحمه الله. ورسالة "أصول عظيمة من قواعد الإسلام" ورسالة "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين" ورسالة "تنزيه الدِّين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله" ورسالة "أصول الدِّين" كلُّها للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

وقد أوضحَ القرآنُ ما يَتْبَعُ ذلك من الصُّلْح والهُدْنَة ونَبذِ العهود إذا اقتضى الأمر ذلك، قال: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ [التوبة:٤]، وقال: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٧]، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]، وقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٣].

وأمَرَ بالحذر والتَّحرُّر من مكائدهم وانتهازهم الفُرَص، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١] ... قال: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ [النساء:١٠٢] ... ونحو ذلك من الآيات.

* وأما السياسة الدَّاخلية:

فمسائلها راجعة إلى نشر الأمن والطمأنينة داخل المجتمع، وكفّ المظالِمِ، وردِّ الحقوق إلى أهلها.

والجواهر العظام التي عليها مدار السياسة الدَّاخلية ستة:

الأول: الدِّين: وقد جاء الشَّرع بالمحافظةِ عليه؛ ولذا قال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١)، وفي ذلك ردعٌ بالغٌ عن تبديل الدِّين وإضاعته.

الثاني: الأنفس: وقد شرع الله في القرآن القِصَاصَ؛ محافظةً عليها: الآية ﴿**وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ**﴾ الآية [البقرة:١٧٩]، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى**﴾ الآية [البقرة:١٧٨]، ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا**﴾ الآية [الإسراء:٣٣].

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في عدَّة مواضع، منها (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم) (باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة) برقم (٦٩٢٢)، عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، ونصُّه: قال عكرمة: أُتي علي بزنادقةٍ فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، فقال: لوكنتُ أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ «**لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ**»، ولقتلتهم؛ لقول رسول الله ﷺ «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**».

* وفي الباب حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، في ذلكم الرجل اليهودي الذي أسلم ثمَّ ارتدَّ -عياذاً بالله-، قال معاذٌ: رضي الله عنه: لا أجلِس حتَّى يُقتل قضاء الله ورسوله ﷺ. فأَمَرَ به فقُتِلَ. أخرجه البخاري برقم (٦٩٢٣)، ومسلم برقم (١٧٣٣).

* وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**». أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الديات) برقم (٦٨٧٨)، ومسلم في صحيحه (كتاب القسامة والمحاربين) (باب ما يُباح به دم المسلم) برقم (١٦٧٦).

الثالث: العقول: وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة:٩٠].

وفي الحديث: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، مَا أَسْكَرَ كَثِرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**» (١)، ولأجل المحافظة على العقول وجَبَ الحدُّ على شارب الخمْرِ.

(١) هذا اللفظ بتمامه أخرجه ابن ماجه في "سننه" (كتاب الأشربة) (باب: ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ) برقم (٣٣٩٢)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وفي إسناده: أبو يحيى زكريا بن منظور؛ وهو ضعيفٌ كما قال البوصيري، وضعَّفه الحافظ ابن حجر. "تقريب التهذيب" رقم الترجمة (٢٠٢٦).
والحديث صحيحٌ؛
* فإن له شاهداً من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَا أَسْكَرَ مِنْهُ الفَرْقُ فَمِلءُ الكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ**». أخرجه أبو داود في "سننه" (كتاب الأشربة) (باب النهي عن المُسْكِرِ) برقم (٣٦٨٧)، والترمذي في "سننه" (كتاب الأشربة) (باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ) برقم (١٨٦٦)، وغيرهما، وإسناده صحيحٌ.
* وشاهداً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرَهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**». أخرجه أبو داود في "سننه" برقم (٣٦٨١)، والترمذي في "سننه" برقم (١٨٦٥)، وابن ماجه في "سننه" برقم (٣٣٩٣)، وإسناده حسنٌ.
=

الرابع: الأنسابُ: وللمحافظة عليها شَرَعَ اللهُ حَدَّ الزنا: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية [النور:٢].

= * وشاهداً من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**أَنْهَاكُمْ عَنْ قَلِيلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ**». أخرجه النسائي في "سننه" (كتاب الأشربة) (باب تحريم كل شراب أسكر كثيره) برقم (٥٦٠٨)، وغيره. وإسناده حسنٌ.

* وشاهداً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**». أخرجه النسائي برقم (٥٦٠٧). وإسناده حسنٌ.

* وأمَّا الشطر الأول منه: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**». فأخرجه البخاري في "صحيحه" في عدَّة مواضع، منها (كتاب المغازي) (باب بعث أبي موسى ومعاذٍ إلى اليمن قبل حجة الوداع) برقم (٤٣٤٣)، ومسلم في "صحيحه" (كتاب الأشربة) (باب بيان أنَّ كل مسكر خمر وأن كل خمر حرامٌ) برقم (١٧٣٣).

* وأخرجه مسلم برقم (٢٠٠٣)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والبخاري بنحوه بدون ذكر الشاهد برقم (٥٥٧٥).

* وأخرجه مسلم برقم (٢٠٠٢)، عن جابر بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

* وأخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأشربة) (باب الخمر من العسل وهو البتع) برقم (٥٥٨٥)، ومسلم في "صحيحه" (كتاب الأشربة) (باب بيان أنَّ كلَّ مسكر خمر ...) برقم (٢٠٠١)، عن عائشة رضي الله عنها، وبلفظ: «**كُلُّ شَرَابٍ أُسْكِرَ فَهُوَ حَرَامٌ**».

* وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الأشربة) (باب النهي عن الانتباذ في المزَّفَّت والدُّبَّاءِ والحنتم والنّقير، وبيان أنه منسوخ ...) برقم (٩٧٧)، عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

الخامس: الأعراض: ولأجل المحافظة عليها شرَعَ الله جلدَ القاذف ثمانين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور:٤].

السادس: الأموال: ولأجل المحافظة عليها شَرَعَ اللهُ قطع السارق: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] [١].

فتبيَّن أنَّه من الواضِحِ أنَّ اتِّباع القرآن كفيلٌ للمجتمع بجميع مصالحه الدَّاخلية والخارجية.

* * * *

(١) وهذه الجواهر كلُّها بتفاصيلها ومسائلها أصولها وفروعها تجدها في كتب الفقه.

(المَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: تَسْلِيطُ الكُفَّارِ عَلَى المُسْلِمِين)

٨ – وأمَّا **المسألة الثامنة**: التي هي: تسليط الكفار على المسلمين:

فقد استشكَلَها أصحاب رسول الله وهو موجودٌ بين أظهرهم، وأفتى الله جلَّ وعلا فيها بنفسه في كتابه فتوى سماويَّة أزال بها ذلك الإشكال، وذلك أنَّه لَمَّا وقع بالمسلمين ما وقع يومَ أحدٍ استشكلوا ذلك، فقالوا: كيف يُدال منَّا المشركون ويُسلَّطون علينا، ونحنُ على الحقِّ وهم على الباطل؟! [١]. فأفتاهم الله

(١) بنحو هذا أخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره" عند هذه الآية برقم (٤٥٢٤)، عن الحسن البصري رحمه الله: أنَّه قال: لَمَّا رَأَوْا مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالُوا: مِنْ أَيْنَ هَذَا ؟ مَا كَانَ لِلْكُفَّارِ أَنْ يَقْتُلُوا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُّ مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ، قَالَ اللهُّ: هُمْ بِالأَسْرَى الَّذِينَ أَخَذْتُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَرَدَّهُمُ اللهُّ بِذَلِكَ وَعَجَّلَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لِيُسْلَمُوا مِنْهَا فِي الآخِرَةِ.
وإسناده ضعيفٌ؛ فإنَّ فيه عبَّاد بن منصور، وهو ضعيفٌ، ضعَّفه أبو زرعة وأبو حاتم، وقال يحيى بن معين: ليس بشيءٍ. وكان قدرياً، وتغيَّر بآخرةٍ. "تهذيب الكمال" رقم الترجمة (٣٠٩٣).
والثَّابت في سبب نزول هذه الآية هو ما يلي: أخرج الإمام أحمد في "مسنده" برقم (٢٠٨)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر؛ قال: نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم القبلة، ثم مدَّ يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال «**اللهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي؟ اللهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلامِ ، فَلا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**»، قال: فما زال يستغيث ربه عز و جل، ويدعوه =

= حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر ﷺ فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾. فلما كان يومئذ، والتقوا؛ فهزم الله عز و جل المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلاً، وأُسر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر ﷺ، فقال أبو بكر ﷺ: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ** ؟» قال: قلتُ: والله ما أرى ما رأى أبو بكر ﷺ، ولكنِّي أرى أن تمكِّنني من فلان -قريباً لعمر- فأضرب عنقه، وتمكِّن علياً ﷺ من عقيل فيضرب عنقه، وتمكِّن حمزة ﷺ من فلان –أخيه- فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم، وأئمتهم، وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ﷺ، ولم يهو ما قلتُ، فأخذ منهم الفداء، فلمَّا أن كان من الغد؛ قال عمر ﷺ: غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعدٌ وأبو بكر ﷺ، وإذا هما يبكيان، فقلتُ يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدُّت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال: فقال النبي ﷺ «**الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» -لشجرة قريبة- وأنزل الله عز و جل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ من الفداء، ثم أحلَّ لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكُسِرت رباعيته، وهشمت البيضة على =

في ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ أوضحه على التحقيق بقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فبيَّن في هذه الفتوى السماوية أنَّ سبَ تسليط الكفَّار عليهم جاءهم من قِبَلِ أنفسهم، وأنَّه هو فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيان بعضهم الرسولَ ورغبتهم في الدنيا، وذلك أنَّ الرُّماةَ الذين كانوا بسفَحِ الجبل يمنعون الكفار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم طمعوا في الغنيمة عند هزيمة المشركين في أوَّل الأمر، فتركوا أمرَ الرسول لأجل رغبتهم في عَرَضٍ من الدُّنيا ينالونه [١].

= رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ الآية، بأخذكم الفداء.

إسناده صحيحٌ، وأصله في "صحيح مسلم" (كتاب الجهاد والسِّيَر) (باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدرٍ، وإباحة الغنائم) برقم (١٧٦٣).

(١) أخرج البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسِّيَر) (باب ما يُكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه) برقم (٣٠٣٩)، عن البراء بن =

عازب ﷺ، قال: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللهَّ بْنَ جُبَيْرٍ ﷺ فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**» فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللهَّ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهَّ بْنِ جُبَيْرٍ ﷺ: الْغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ جُبَيْرٍ ﷺ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهَّ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللهَّ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنْ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهَّ يَا عَدُوَّ اللهَّ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ. قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا، وَلَمْ تَسُؤْنِي. ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللهَّ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ**»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللهَّ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**».

* وبالمناسبة: فإنَّ التنازع سواء كان في أمور الدِّين أو الدنيا من أعظم أسباب الفشل، كما قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦**﴾ [الأنفال:٤٦]، فالتنازع سببٌ عظيمٌ من

❊ ❊ ❊ ❊

=

أسباب الفشل، الفشل في العقائد، الفشل في العبادات، الفشل في الأخلاق والمعاملات، الفشل في الأخوة، الفشل في الأعمال الدنيوية، بما يؤدِّي إلى نزْع الهيبة والقوّة من المسلمين، وحصول الفُرْقة والتَّحزُّب، والقتال، والكيد، والمكر، والخداع، والغش، والخيانة، والتَّجسس، وحصول البغضاء ، والشَّحناء، والهجْر، والغيبة، والنميمة، والطعن في الأعراض، وغير ذلك من المفاسد العظيمة جرَّاء التنازع والاختلاف.

ولهذا؛ فإنَّ اليهود والنَّصارى والمشركين والمنافقين، والعلمانيين يسعون جادِّين في زرع التنازع بين المسلمين بالتَّحريش بينهم، وإدخال الفتن في أوساطهم بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ، كفانا الله شرَّهم. فالذي ننصح به هو توحيد الصفِّ على كلمة الحقِّ، والاجتماع على القرآن والسنة، وردّ الأمور إلى القرآن والسنة، واستفهامها وعقلها على أيدي العقلاء من أهل العلم المخلصين الذين يحذون حذوا السلف الصالح، مع المشاورة مع العقلاء الذين لهم خبرة في إصلاح البلاد والعباد في معايشهم، وإرجاع ما اختُلِف فيه إلى القرآن والسنة، والبعد عن الهوى والبدع والشهوات المحرَّمة، والاعتناء بالدِّين، وتعقُّل الأمور بعلمٍ، وحلمٍ، ورزانةٍ، وتؤدةٍ، وسكينةٍ، ورِفقٍ، وصبرٍ، ومن خالف الحقّ وعاند عومل بما يستحق، ومن وافق الحق نُصِرَ وأُيِّد، وليكونوا جميعاً متعاونين على البرِّ والتقوى، يكمِّل بعضهم بعضاً، -والكمال لله-، مع التسديد والمقاربة، وكلٌ يشدُّ الآخر، فإنَّ الرَّاعي والرّعية كلهم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، والحذر من الإشاعات الكاذبة، والإعلام الفاجر، بل الواجب التَّثبُّت والتَّبيُّن، والله المستعان. أسأل الله أن يجمع شمل الأمة الإسلامية، وأنَّ يأخذ بنواصي المسلمين إلى كلِّ خيرٍ، وأن يصرف عنهم الشيطان ومكايده وجنوده، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

(المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ: ضَعْفُ المُسْلِمِينَ وَقِلَّةُ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِم بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُفَّارِ)

٩ – وأمَّا **المسألة التاسعة**: التي هي: مسألة ضعْفِ المسلمين وقِلَّة عَدَدِهم وعُدَدِهم بالنسبة إلى الكفار:

فقد أوضح الله جلَّ وعلا عِلاجَها في كتابه، فبيَّن أنَّه إن عَلِمَ من قلوب عباده الإخلاصَ كما ينبغي، كان من نتائج ذلك الإخلاصِ أن يقهروا ويَغلبوا من هو أقوى منهم؛ ولذا لما علم جلَّ وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص كما ينبغي، ونوَّه بإخلاصهم في قوله: ﴿**۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ**﴾ [الفتح:١٨]، بيَّنَ أنَّ من نتائج ذلك الإخلاص أنَّه تعالى يجعلهم قادرين على ما لم يقدروا عليه، قال: ﴿**وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا**﴾ [الفتح:٢١]، فصرَّح بأنَّهم غير قادرين عليها، وأنَّه أحاط بها فأقدرهم عليها وجعلها غنيمةً لهم لِمَا عَلِمَ من إخلاصهم؛ ولذلك لمَّا ضَرَبَ الكُفَّار على المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصارَ العسكري العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾**﴾ [الأحزاب:١٠-١١]، كان علاج هذا الضعف

والحصار العسكري الإخلاص لله وقوَّة الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

فكان من نتائج ذلك الإخلاص ما ذكره الله بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧]، وهذا الَّذي نصرهم الله به ما كانوا يظنونه، وهو الملائكة والرِّيح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ الآية [الأحزاب:٩].

ولأجل هذا كان من الأدلة على صحَّة دين الإسلام أنَّ الطائفة القليلة الضعيفة المتمسِّكة به، تَغْلِبُ الكثيرةَ القويَّةَ الكافرةَ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

ولذلك سمَّى الله تعالى يومَ بدرٍ (آية) و(بيِّنة) و(فرقاناً)؛ لدلالته على صحَّةِ دينِ الإسلام، قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران:١٣]، وذلك يومَ بدرٍ، وقال تعالى: ﴿إِن

كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١]، وذلك يومَ بدرٍ، وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ الآية [الأنفال:٤٢]، وذلك يوم بدرٍ، على ما حقَّقه بعضهم[(١)].

ولا شكَّ أنَّ غلبةَ الفئة القليلة الضَّعيفة المؤمنة للكثيرةِ القويَّة الكافرة دليلٌ على أنَّها على الحقِّ[(٢)]، وأنَّ الله هو الذي نصرها؛ كما قال في وقعة بدرٍ: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) نعم؛ انظر "تفسير ابن جرير الطبري" (١١/ ٢٠٠-٢٠٨) "معالم التنزيل" للبغوي (٣/ ٣٦٢-٣٦٣) "المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية (٢/ ٥٣٢-٥٣٤) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٨/ ٢٤-٢٥)، "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٢/ ٤١٤-٤١٦).

(٢) نعم؛ شَرْطُ أن تكون مؤمنة، فهي على الحقِّ، أمَّا لو كانت قليلة وهي كافرة فانتصرت في بعض المواطن، أو كانت كثيرة فانتصرت وهي كافرة؛ فإنَّ ذلك لا يدلُّ على أنَّها على الحقِّ، بل إنَّ هذا يكون ابتلاءً للمؤمنين حتَّى يرجعوا إلى الله، وينتبهوا من أسباب الفشل، وليعلم الله صدق إيمانهم، ويكون استدراجاً على الكافرين، ليستكثروا بالكفر، ويزدادوا إثماً إلى إثمهم، وكبراً وغروراً. حتَّى يكون ذلك سبباً لدمارهم وهلاكهم، وتكثير المسلمين عليهم، مع ما يجازون عليه من العقاب الأليم في جهنَّم وبئس المصير.

* أمَّا أنَّه ابتلاءٌ للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ =

=

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٢-١٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:١٦٥-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٤-١٥٥].

هذا وقد يبتلي الله المؤمنين بالكثرة، ثمَّ يبتليهم بظفر الأعداء عليهم ليعلموا أنَّ العبرة بالإيمان وليست الكثرة، وأنَّ النَّصر من عند الله تعالى، وأقرب مثالٍ لذلك غزوة حنين، فقد حصل على المؤمنين ما حَصَلَ، ثمَّ بعد ذلك نصرهم الله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٦]. قال عبد الله بن عمر: لقد رأيْتُنا يومَ حُنينٍ وإنَّ الفئتين لمولِّيتان، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجلٍ. أخرجه الترمذي في "سننه" (كتاب الجهاد) (باب ما جاء في الثبات عند القتال) برقم (١٦٨٩). وإسناده حسنٌ.

=

* وأمَّا أنَّه استدراجٌ على الكافرين، فقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد:١٢-١٣].

وذكر الله نماذج لغلبة هؤلاء على المؤمنين، ثمَّ ذكر كيف عاقبهم، وأهانهم، ودمَّر قوَّتهم، بعذابٍ أليمٍ، ليُري العباد أنَّ ظفر الكفَّار بالمسلمين في بعض الأوقات إنَّما هو استدراجٌ لهم، لا أنَّهم على الحقِّ، فكانت العاقبة للمتقين، وعلى سبيل المثال لا الحصر: قوم نوح، وفرعون، وهامان، وعاد، وثمود، وكفار قريش حين بقوا

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال: الآية ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال:١٢].

والمؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر، وبيَّن الله تعالى صفاتهم وميَّزهم بها عن غيرهم، قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج:٤٠].

ثمَّ ميَّزهم عن غيرهم بصفاتهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج:٤١].

وهذا العلاج الذي أشرنا إليه أنَّه علاج للحصار العسكري، أشار تعالى في سورة المنافقين إلى إنَّه -أيضاً- علاجٌ للحصار الاقتصادي، وذلك في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧].

وهذا الذي أراد المنافقون أن يفعلوه بالمسلمين هو عين الحصار الاقتصادي، وقد أشار تعالى إلى أنَّ علاجه قوةُ الإيمان به وصدقُ التَّوجُّه إليه

= سنين كثيرة يؤذون النبيَّ ﷺ ويستضعفونه، ويخرجونه من بلده، وغيرهم، وكلُّ ذلك موجودٌ في القرآن ومبيَّنٌ بأحسن بيان.

جلَّ وعلا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون:٧]؛ لأنَّ من بيده خزائن السماوات والأرض لا يُضيعُ ملتجئاً إليه، مطيعاً له: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وبيَّن ذلك –أيضاً– بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨].

* * * *

(المَسْأَلَةُ العَاشِرَةُ: مُشْكِلَةُ اخْتِلَافِ القُلُوبِ)

١٠ – وأما **المسألة العاشرة**: التي هي: مشكلة اختلاف القلوب:

فقد بيَّن تعالى في سورة الحشر أنَّ سببها عدمُ العقل بقوله: ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ**﴾ ثمَّ بيَّن السبب بقوله: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾**﴾ [الحشر:١٤].

ودواء ضعف العقل هو إنارته باتِّباع نور الوحي؛ لأنَّ الوحيَ يُرشدُ إلى المصالح التي تَقصُرُ عنها، قال تعالى: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام:١٢٢].

فبيَّن في هذه الآية أنَّ نور الإيمان يحيا به مَنْ كان ميتاً، ويُضيءُ له الطريق التي يمشي فيها.

وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾**﴾ [الملك:٢٢] ... إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة: فالمصالح البشرية التي بها نظام الدُّنيا راجعة إلى ثلاثة أنواع:

١ – الأول: درْءُ المفاسد –المعروف عند أهل الأصول بالضروريات–، وحاصله دفع الضَّرر عن الستَّةِ التي ذكرنا قبلُ، أعني: الدِّين، والنَّفس، والعقل، والنَّسب، والعِرْض، والمال.

٢ – الثَّاني: جلبُ المصالح –المعروف عند أهل الأصول بالحاجات–، ومن فروعه: البيوع على القول بذلك، والإجارات، وعامَّةُ المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه الشرعي [(١)].

(١) هذان النَّوعان؛ درء المصالح، وجلب المفاسد من أمور الدِّين وقواعده التي شَمَلَت المصالحَ كلَّها للعباد والبلاد.
قال العزُّ بن عبد السلام رحمه الله: والشريعة كلُّها مصالحُ، إمَّا تدرأ مفاسدَ أو تجلبُ مصالحَ، فإذا سمعتَ الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فتأمَّل وصيَّتَه بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثّك عليه أو شرَّاً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحثِّ والزَّجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثَّاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الحكام من المصالح حثَّاً على إتيان المصالح ا.هـ "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"(١/ ١٣).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن الله أمر بالصلاح ونهى عن الفساد وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، ... ا.هـ من "مجموع الفتاوى:(٣١/ ٢٦٦).
وقال رحمه الله: وتمام الورع أن يعمَّ الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد =

= يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع ا.هـ من "مجموع الفتاوى"(١٠/ ٥١٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: وإذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاحمت قدم أهمها وأجلها، وإن فاتت أدناهما، وتعطيل المفاسد الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاحمت عطل أعظمها فساداً باحتمال أدناهما، وعلى هذا وضع أحكم الحاكمين شرائع دينه دالة عليه، شاهدة له بكمال علمه وحكمته ولطفه بعباده وإحسانه إليهم، وهذه الجملة لا يستريب فيها من له ذوق من الشريعة، وارتضاع من ثديها، وورود من صفو حوضها، وكلما كان تضلعه منها أعظم كان شهوده لمحاسنها ومصالحها أكمل ...

والقرآن مملوء من أوله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر ومصالحهما ومنافعهما، وما تضمناه من الآيات الشاهدة الدالة عليه، ولا يمكن من له أدنى اطلاع على معاني القرآن إنكار ذلك، وهل جعل الله سبحانه في فطر العباد استواء العدل والظلم والصدق والكذب والفجور والعفة والإحسان والإساءة والصبر والعفو والاحتمال والطيش والانتقام والحدة والكرم والسماحة والبذل والبخل والشح والإمساك، بل الفطرة على الفرقان بين ذلك، كالفطرة على قبول الأغذية النافعة، وترك مالا ينفع ولا يغذي، ولا فرق في الفطرة بينهما أصلاً، وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله ﷺ حق التأمل وجدتها من أولها إلى آخرها شاهدة بذلك، ناطقة به، ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة بادياً على صفحاتها، منادياً عليها، يدعو العقول والألباب إليها، وأنه لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح والظلم والسفه الذي يتعالى عن أرادته وشرعه، =

وأنه لا يصلح العباد إلا عليها، ولا سعادة لهم بدونها البتة ا.هـ مختصراً من "مفتاح دار السعادة"(٢/ ٣٦٢-٣٦٥).

وقال ﵀: فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان، وأن لا يفوت منها شيءٌ، فإن أمكن تحصيلها كلها حصلت، وإن تزاحمت ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قدم أكملها وأهمها وأشدها طلباً للشارع ا.هـ من "مفتاح دار السعادة"(٢/ ٣٥٦).

وقال الإمام الشوكاني ﵀: فمنها أن يُعلمَ أنَّ هذه الشريعة المطهرة السمحة مبنيَّةٌ على جلبِ المصالح، ودفع المفاسد، ومن تتبَّع الوقائع الكائنة من الأنبياء والقصص المحكيَّة في كُتُبِ الله المنزَّلة عَلِمَ ذلك عِلماً لا يشوبه شكٌّ ولا تخالطه شبهةٌ.... وبالجملة: فكلُّ ما وقع من النسخ والتَّخصيص والتقييد في هذه الشريعة المطهرة فسببه جلبُ المصالح، أو دفع المفاسد ا.هـ باختصار من "أدب الطلب ومنتهى الأرب"(ص:٢٢٩-٢٣٣).

* ثمَّ ليُعلم أنَّ المصالح والمفاسد لا تُعرف إلا بهذا الدِّين الحنيف، قال العزُّ بن عبد السلام ﵀: أمَّا مصالح الدَّارين وأسبابها ومفاسدها؛ فلا تُعرف إلا بالشرع، فإن خَفِيَ منها شيءٌ طُلِبَ من أدلَّةِ الشَّرع، وهي: الكتابُ، والسنةُ، والإجماع، والقياسُ المعتبر، والاستدلال الصحيح، وأمَّا مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها؛ فمعروفةٌ بالضرورات والتجارب والعادات، والظنون المعتبرات، فإن خفي شيءٌ من ذا طُلِبَ من أدلته ا.هـ من "قواعد الأحكام"(١/ ١١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة ا.هـ من "مجموع الفتاوى"(٢٨/ ١٢٩).

وقال العلامة العثيمين ﵀: يُرجعُ في تحقيق المصالح والمفاسد إلى الشرع: القرآن، والسنة، لا إلى الذوق ا.هـ من "القواعد"(ص:٤١).

٣ – النوع الثالث: التَّحلِّي بمكارم الأخلاق، والجري على محاسن العادات –المعروف عند أهل الأصول بالتحسينات والتتميمات– ومن فروعه: خصال الفِطرة؛ كإعفاء اللحية، وقصّ الشَّارب ... إلخ.

ومن فروعه أيضاً: تحريم المستقذرات، ووجوب الإنفاق على الأقارب الفقراء.

وكلُّ هذه المصالح لا يكون شيءٌ أشدُّ محافظة عليها –بالطُّرق الحكيمة السليمة– من دين الإسلام: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١].

وصلَّى الله على محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * * *

= وبهذا أختم ما يسَّره الله من التعليق على هذه الرسالة، وذلك يومَ الثلاثاء:٢/ من شهر محرَّم/ لعام١٤٣٨هـ، اليمن – إب – منزل جوزة. أسأل الله أن ينفع بهذا العمل المسلمين، وأن يجعله سبباً لرفعة الدَّرجات، وزيادة الحسنات، ومحو السيئات، وأن يجعله لوجهه خالصاً، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه

أبو عبد الرحمن

معاذ بن أحمد بن فؤاد بن حسن الزَّعيم

(الفِهْرَسُ)

❊ ❊ ❊ ❊